فتاوى وأقضية وأحكام
الإمام عليّ

تأليف

عرفات القصبي قرون

١٤١١ هـ — ١٩٩١ م

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث
محمد محمد امبابي
٩ درب الأتراك خلف الأزهر بمصر
ت : ٣٩٣٠٨٤٧



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ان الكتابة عن الامام على كرم الله وجهه متعة لا تعادلها متعة . شأنها شأن الحديث عنه سواء بسواء .

ولأن الكتابة عنه كرم الله وجهه تنقل القارىء والكاتب أولا الى ذلك العصر الذهبى للاسلام حيث النبى صلوات الله وسلامه عليه وصحابته الغر الميامين .

هذا فضلا عن أن الامام كان له نصيب وافر فى هذا العصر الأول منذ اسلامه الى ملتقى الملك .

فحين أكرمنى الله سبحانه وتعالى بتأليف كتاب (عظمة الامام على) والذى نفد بعد صدوره بقليل ، أحسست أننى مازلت متعطشا للكتابة عن الإمام .. فجمعت حكمه وقضاءه فى ذلك الكتاب الذى نحن بصدده لعلى أروى ظمأى من علوم الامام .

ولا أخفى على القارىء العزيز أننى ظللت أخوض فى تلك البحار الزاخرة بالعلم والمعرفة دون أن أبصر لها شطآن ، ومن ذا الذى يحيط بعلم الامام حصرا .

وانى لا أبغى من الكتابة عن الامام كرم الله وجهه الا وجه الله تعالى وليتأمل القارىء تلك الحكمة العلوية المستمدة ينبوعها من عين النبوة الصافية .

هذا وبالله التوفيق ،

المؤلف

تمهيد

لا غرابة أن يمتلك الامام على بن أبى طالب زمام العلم والفطنة ..
ولا جرم أن يتبوأ تلك المكانة العليا فى الفقه والقضاء .
وأن تجرى على لسانه الحكمة والموعظة الحسنة والعبرة عبر الزمان .. ولا أدل على ذلك من نصرته للدين منذ الصغر ، فكانت نصرته للاسلام قد جعلته يحيط بجوامع الدين بمعتقد قويم سليم .

فهو كرم الله وجهه ومنذ البداية له فى الاسلام مقام كريم ، فالذى اعتنى بتربيته وعلمه هو خيار الناس أجمعين ، هو النبى الشريف محمد صلوات الله وسلامه عليه الذى هو خيار من خيار من خيار كما جاء فى حديثه الشريف : « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى بنى هاشم من قريش واصطفانى من بنى هاشم فأنا خيار من خيار من خيار » .

وهكذا جاءت الصورة وخيالها فى المرآة .. !
لأن الامام على عليه السلام سليل هذه الشجرة المباركة وثمرتها الناضجة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولا يغيب عن أحد أنه كرم الله وجهه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزوج ابنته الزهراء سيدة نساء العالمين ، فهما فى المجد موغلين وفى الشرف متسربلين .

فشرف الامام على مستمد من شرف نبيه وابن عمه صلوات الله وسلامه عليه ، كما ورث الابناء هذا الشرف العظيم الذى فاض على الاحفاد يرثون عن الآباء والأجداد صفاتهم النفسية والجسمانية والخلقية فمحمد صلوات الله وسلامه عليه قد أدبه ربه عز وجل كما يحب الله ويرتضى وحسن خلقه بالقرآن الكريم ، فلا غرابة بعد ذلك أن ينهل على الفتى من لسان النبوة وأن يتأدب بأدب رسول الله ويتشبع بعلم الرسالة وهو الذى يعيش معه منذ أن أبصرت عيناه الحياة .

لقد انحدر الامام على من نفس شجرة النبى المختار صلى الله عليه وآله وسلم فهما أولاد عمومة واحدة وجدهما عبد المطلب بن هاشم سيد قريش ، فهما من الهاشميين الذين اصطفاهم الله من قريش كما اصطفى قريشا من العرب أجمعين .

وعبد المطلب كان سيد قومه كما كان آباؤه أسيادا للعرب جميعا ، يسودونهم بالاريحة والمنفعة وخدمة الحجيج الاعظم ، كما يزوهم فى مكارم الأخلاق وحسن التأدب والفضيلة والكرم واغاثه الملهوف ، فكانوا أشراف العرب لا يسبقهم فى هذا المضمار سابق ، ثم توارثت الأبناء هذا الشرف التليد فانتقل الى أبى طالب والد الامام على وكان يسمى بيضة البلد ، فكانت له عصبية بنى هاشم ودانت له قريش لشرفه وفضله . فكان أهلا لهذا الواجب الذى نيط به ، كما كان ضليعا فى تحمل العبء الثقيل حين بشر ابن أخيه عبد الله بالنبوة والرسالة الكبرى .

ويذكر صاحب السيرة الحلبية أن أبا طالب كان كأبيه عبد المطلب فكلاهما حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية على شدة ايثار العرب لها وحبهم اياها وتغنيهم بها فى حملها شاربها على الشجاعة والجود اللذين هما من أعظم مكارم الأخلاق ، والذى يتمثل عليا فى نشأته هذه لا يرتاب فى أنه كرم الله وجهه قد ورث عن أبيه أشرف ما يرث الولد الكريم من أبيه العظيم .

الا أن الامام على لم يسجد لصنم قط مثلما كان يفعل العرب فى ذاك الزمان فقد أدركته العناية الالهية بنبوة خاتم النبيين وسيد المرسلين الذى كان يعيش معه فى كنفه وفى بيته عندما اشتدت الفاقة بأبى طالب فى أواخر حياته ، فأخذ النبى عليه الصلاة والسلام عليا ليتربى معه فى أحضان النبوة .

هذا فضلا من النشأة الأولى فى بيت أبيه الذى اجتمعت له فضائل العرب فتنتزه عن القبح والرذيلة فعاش فاضلا يذود عن ابن أخيه عداوة قريش وحقدها لمحمد بن عبد الله سيد المرسلين .

ولا يسعنا هنا الا أن نبرز دور أبى طالب فى النبوة لعلنــا نقف على سر فقه الامام على ، فقد شطر أبو طالب نفسه شطرين ، شطر يذود عن النبى ويدفع الأذى بالعصبية ، وشطر يميل به أبو طالب نحو قومه حتى لا يفقد سلطانه بينهم فيذود عن ابن أخيه بهذا السلطان . فى هــذا المناخ المتناقض تربى على فى هذا البيت العتيق على الفطرة الانسانية ، يرى ويتأمل ويزداد كل يوم حنكة من أبيه من تجاربه وصبره على عداوة قريش وهو الذى لم يشتد عوده بعد ، ولم تحركه التجارب والحروب ، فعمل عقله على التأمل قبل أن تتحرك يداه على منطق السيف .

الا أنه لا يفوتنا فى هذا المقام بايمان أبى طالب بما جاء به محمــد صلوات الله وسلامه عليه ، فان تصديه لجبابرة قريش ببسالة وشجاعة وحكمة لتدل دلالة لا تحتاج الى تفسير على ايمانه العميق بالدين الجديد ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان فى هذا الظلام الدامس الذى تعيش فيه العرب بقية من الحنيفية السمحاء ملة أبيهم ابراهيم عليه السلام .

ولعــل الحكمة فى عــدم جهره بالاســلام قــد ســاعدت النبى عليه أفضل الصلاة والسلام كثيرا فى بــدء الدعوة المحمدية ، فكثير من ذوى النفوذ والجاه أسلموا وأوذوا فى سبيل الدعوة لأنهم أعلنوا ايمانهم صراحة أمام طغاة قريش . أما موقف أبى طالب فقد كان كمن يمسك العصا من منتصفها قبل أن تنطلق الدعوة من مهدها الى حيث الاتساع والظهور بميل العصا ناحية قريش بالانحسار والضــمور . والله عنــده حكم الضمائر . وعلم السرائر .

الا أن هناك روايات تؤكد أن النبى صلى الله عليه وسلم عرض على عمه أبى طالب الاسلام قبل موته ليضمن له الجنة فرفض أبو طالب عرض ابن أخيه وهو فى الرمق الأخير من الحياة . فقد روى الامام مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : « لمــا حضرت الوفاة أبا طالب جــاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وأحد بنى المغيرة

فقال رسول الله : « يا عم ، قل لا اله الا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل والمغيرة : «أترغب يا أبا طالب عن ملة عبد المطلب؟ ولم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يردد كلمته لأبى طالب حتى قال آخر ما كلمهم ـ أنا على ملة عبد المطلب وابى أن يقول لا اله الا الله » .

فحرص النبى صلى الله عليه وسلم على اسلام عمه انما جاء نابعا من أخلاقه المثلى وانسانيته ورحمته عليه السلام فجاءت الآية الشريفة لتطيب من خاطره حيث يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

أمام هذه المعضلات التى يصعب على حلها الافهام ويغوص بحثا فى باطنها ذوو الألباب والاحلام نشأ على كرم الله وجهه يرى النقيض والنقيض ، يتأمل بوعيه الكامل ما يدور حوله ، متأملا فى مكنون الرسالة فى صدر النبى صلى الله عليه وسلم ليتعلم منه التدبر وفصل الخطاب !

كان ثانى من صلى خلف النبى عليه السلام مع زوجته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، منذ البداية الى النهاية وهو حريص على تتبع أثر النبى ، يسأله عن الشاردة والواردة ، والظاهرة والمتخفية ، فان لم يسأل استحياء أفاض عليه النبى عليه السلام من علم النبوة .

ولا يخفى هذا على المتأمل فى سيرة الامام كرم الله وجهه ، فهو موئل العلم ومنار الفقه ، فاليه يرجع العلم كله ، فما من عالم نبغ فى معرفة وانفرد بها الا من على أخذ ولأثره اقتفى وعلى طريقه احتذى ، أخذ عنه فقهاء الأمة الاسلامية جميعا وانتهى اليه ، أهل السنة ، وأهل الشيعة كما انتهت اليه كل الفرق الاسلامية تقريبا .

أخذ عنه من تعلموا العلم الالهى وهو أشرف العلوم وافضلها على الاطلاق ، فنبع فى هذا المضمار أئمة علم التوحيد ونهلوا من رضاب الامام كرم الله وجهه ، كما أخذ عنه فقهاء علم الكلام القائم على النظر والاستدلال مثل الاشاعرة الذين ينتمون الى أهل السنة وشيخهم فى هذا هو أبو الحسن على بن أبى بشر المتتلمذ لأبى على الجبائى .

وأخذ منه علماء الفقه القائم على سلوك المسلم فى العبادات والمعاملات والعادات ، فالامام على هو امامهم فى هذا العلم فاستفادوا منه ونهلوا من مورثاته .

فتذكر الوثائق والمصادر الموثوق منها أن أبا يوسف قد أخذ العلم عن أبى حنيفة ، والامام أحمد بن حنبل قرأ على محمد بن الحسن ففقهه راجع الى أبى حنيفة ، والامام أحمد بن حنبل قرأ على الشافعى وأبى حنيفة ثم أن أبى حنيفة قد قرأ على جعفر الصادق رضى الله عنه وقرأ جعفر على أبيه محمد الباقر وقرأ الباقر على على زين العابدين وهو ابن الحسين رضى الله عنهم أجمعين ، والحسين بن على كرم الله وجهه .

ومالك امام المدينة قرأ على ربيعة الرأى وقرأ ربيعة على عكرمة وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقرأ ابن عباس على الامام على كرم

الله وجهه ، وهؤلاء جميعا هم أئمة أهل السنة وأهل الشيعة .

ويقول الامام ابن القيم عن مسروق من قوله « شاممت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدت علمهم ينتهى الى ستة : على ، عبد الله ، عمر ، زيد بن ثابت ، أبى الدرداء ، أبى بن كعب . ثم شاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم ينتهى الى على » .

فالامام على كرم الله وجهه هو حجة السائلين وجواب الباحثين ، ومنار التائهين وفى ذلك يقول كرم الله وجهه « نحن شجرة النبوة ، ومحط الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومعادن العلم ، وينابيع الحكمة ، ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة ، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة » .

ويصف آل النبى عليه الصلاة والسلام بأنهم « موضع سره ، ولجأ أمره ، وعيبة علمه وموئل حكمه ، وكهوف كتبه وجبال دينه .. » .

من هذه البداية يتضح لنـا أن الامام على كرم الله وجهه هو حلقة اتصال لكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت فى صـدر الاسـلام فهو منشـأ هذه الفرق أو قطبها الذى تدور عليـه ، وندرت فرقة فى الاسلام لم يكن على كرم الله وجهه معلما لها منذ نشأتها أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، وأكثر هذه الفرق التى جعلتـه قطبـا لهـا فحسـبك أن نذكر الخـوارج والروافض والشـيعة وأهل السـنة ، وهم أصـول الفرق الاسلامية جميعا وان بقى غيرهم جـد يسـير .

بهذا العلم الغزير الذى توخى الامام على منه اقامة العدل الانسانى فى حكومته الامامية وقبل ذلك فى خلافة سـابقيه من الراشدين باذلا أقصى ما لديه من جهـد الطاقة الأدبية فى الحكمة والموعظـة البالغـة لاسعاد الناس وهى طاقة لها مالها من حدود متفانيا فيها لا يبغى من ورائها الا وجه الله عز وجل حتى صـار يعسوب المؤمنين يتهافتون عليه فى كل عصر وحين !

* * *

أسلفنا القول فى نشــأة الامام على كرم الله وجهه فى أنه تربى مع النبى صلى الله عليه وسلم وعمره ست سنوات وجدير بالذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم حين توفيت أمــه آمنــة بنت وهب اعتنت بتربيتــه أم الامام على فاطمة بنت أســد ، فكانت النشــأة واحدة تحت ســقف بيت واحد ، وكثيرا ما كان الامــام على يقــول للنبى عليه الســلام « يا ابن أمى » فانطوى بينهما حب يعجز الواصــفون عن وصفه لأنه حب ممشــوج بالقرابة والدم والتربية والنشــأة والمصــاهرة ، فعاش الامام ما عاش لا يبعد عنــه الا لينصرف الى ابنته الزهراء رضى الله عنها ، فكان بعــده عنــه يزيده حبا اليه ، فقــد كانت فاطمة الزهراء رضى الله عنهما أحب الأبناء للمصطفى صلى الله عليــه وسلم فيرضــيه ما يرضيها ، فعن سفيان الثورى يروى ابن كثير « أن عليــا كرم الله وجهه قام على منبر الكوفة يقول « أردت أن أخطب الى رسول الله ابنته فاطمة ثم ذكرت أن لا شىء لى ، ثم ذكرت عائدته صلى الله عليه وسلم ، فأطمعنى ذلك فى خطبتها فخطبتها فقال لى صلى الله عليه وسلم « هــل عنــدك شىء » قلت لا • قال : فأين درعك التى أعطيتكها ؟ — قلت : هى عندى • قال : فأعطها فاطمة • فأعطيتها أياها ، فزوجنى ، فلما كانت ليــلة عرسى ، دخلت عليها وقــد قال رســول الله صلى الله عليه وسلم « أنا قادم اليكما ، فجاء وعلينــا قطيفة فهممنا أن نقوم فقال « مكانكما » ثم دعا بقدح من ماء فدعا الله ثم أساله على وعليها • فقلت يا رســول الله أنا أحب اليك أم هى ؟

قال : « هى أحب الى منك وأنت أعز على منها » •
ثم دعا لنــا فقال : « اللهم بارك لهما فى شملهما » •

لا خلاف فى حب على كرم الله وجهه للنبى صلى الله عليه وآله وسلم

لأنه الحب الممشـــوج بحب الله والممزوج بالعصبة والنسب ، فقد كانت كل بطن تلوذ بعصبتها وقوتها ، فما ان استوعب عليـــا الحياة حتى رأى معاداة قريش وحدتها على ابن عمه فكان له عونا وناصرا .

نام في فراشـــه صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة مع علمه الأكيـــد أنهم يترصـــدون ذلك الذى ينام فى هذا الفراش ليقتلوه .

ووقف بجوار الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى جميع المعارك والغزوات والمشاهد فى مواطن ينكث فيها الابطال ويتقهقر فيها الشجعان فكان ســـيفا قاطعا لأعداء الاســـلام ودرعا واقيا للنبى صلى الله عليـــه وآله وســـلم .

أما فضـــل على عند النبى ومحبته له فقـــد كانت جلية واضحة للعيـــان ، فالنبى عليـــه أفضـــل الصـــلاة وأذكى الســـلام كان يحب كل أصحابه والمحيطين به وتلك عظمة الانســـانية فى محمـــد الرءوف الرحيم .

ولقد تفقه رضى الله عنه فى سحر البيان واســـتنباط معانى القرآن فكان الضـــليع فى هـــذا المضمار بعد رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم بلا منـــازع .

وأما حبـــه له عليـــه الســـــلام فهـــو لا يحتـــاج الى برهـــان أو دليـــل ، فقد توافرت الأحاديث الشريفة فى حب النبى للامام على ومنها ما انفرد به الصـــديق رضى الله عنه وهو حديث الخيمة وهـــو أشـــهرها على الاطلاق ، كمـــا أن النبى صلى الله عليه وسلم بين فيـــه فضـــل على وحبه لآل البيت العلوى الأطهار ، يقول أبو بكر « رأيت رســـول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة وهو متكىء على قوس عربية، وفى الخيمة على وفاطمة والحسن والحسين فقال : معشر المســـلمين .. أنا ســـلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، وولى لمن والاهم ، لا يحبهم الا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم الا شقى الجد ردىء الولادة » .

فهذا الفضل العظيم لم يسبغه النبى الكريم لقريب أو بعيد الا لعلى وآل بيته المطهرين ، وهذا الحديث الشريف الذى رواه أبو بكر رضى الله عنه له دلالته عبر التاريخ فحين أدبر الزمان وعض على نواجذه بالأشقياء ولفظ من جوفه الأتقياء وقف هذا الحديث الشريف يفند الناس أمام الامام على وأمام التاريخ ، فسقط محبوه واحدا اثر الآخر شهداء هذا الحب وذاك الفضل المبين .

ومن دلائل هذا الحب المعلن أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحبب الامام على فى الناس ويحبب الناس فيه ، فالنبى عليه السلام كان يرضيه من الناس أن تحبه ويسوؤه منهم أن يبغضه أحدهم .

فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فى سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المسلمون اذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ثم انصرفوا الى رحالهم ، فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه ، فتناوبوا الحديث واحدا بعد واحد فى معنى كلامه ، فلما فرغ الرابع من حديثه ، أقبل عليه رسول الله وقد تغير لونه فقال : « ما تريدون من على ؟ ما تريدون من على ؟ ما تريدون من على ؟ على منى وأنا منه ، وهو ولى كل مؤمن بعدى » .

وفى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأحدهم : « أتبغض عليا ؟ » قال : « نعم ! » قال : لا تبغضه ، فان له فى الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التى اصطفاها ، لا تبغضه وان كنت تحبه فازدد له حبا » .

ليس هناك حب صريح أمام الناس مثل هذا الحب ، وليس هناك فضل أسبغه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد مثل هذا الفضل لصاحب هذا الفضل .

ولا يغيب عنا في هذا الصدد قصة على في اليمن حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا عليها فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم ابل الصدقة ليريحوا ابلهم فأبى ، فشكوه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجعتهم ، وتولى شكايته سعد بن مالك ابن الشهيد فقال : يا رسول الله ، لقينا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق ، ومضى يعدد مالاقاه حتى اذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه وهتف به : « يا سعد بن مالك بن الشهيد بعض قولك لأخيك على ؟ فوالله لقد علمت انه جيش في سبيل الله » .

وشكاه أناس آخرون الى رسول الله ، فكان الرسول يدافع عنه دفاعا ينم عن حبه له ومعرفته بمقداره وشرفه .

ومن هنا ومن هذا المنطلق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسله بالسرايا والبعوث في كل مكان ليثبت أساس ذلك الحب في قلوب الناس ، أرسله الى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ويبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارة بيت الله .

كما أقامه على المدينة حين تركها في غزوة تبوك وهى الغزوة الوحيدة التى لم يشترك فيها الامام كرم الله وجهه .

كما سيره الى خيبر التى استعصى فتحها على أجلاء الصحابة ففتح الله عليه وعاد منصورا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأرسله الى غزو بنى سعد اليهودية في سرية الى فدك فعاد منصورا رافعا راية رسول الله ترفرف بالنصر المبين .

وهناك عشرات الأحاديث الشريفة التى تبين للناس وتلمح بهذا الحب العظيم من نبى الاسلام وسيد المرسلين وخاتم النبيين ، فكل هذه الأحاديث تثبت حقيقة واضحة كالشمس حب النبى الشديد لعلى

كرم الله وجهه ، لأنها حقيقة بديهية تظهر نفسها من وراء كل خلاف ، ولكن .. أكان هذا الحب تمهيدا لخلافة الامام على ؟

قد يكون هذا تمهيدا للخلافة بلا مراء ، ولكن لا يشترط هذا التمهيد وذاك التلميح أن يكون بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، انما مكن له النبى فى هذا الأمر ولو بعد حين .

فالرسول صلى الله عليه وسلم مهد له فى هذا السبيل ولو كان فى الغد المأمول فقال فى حديثه الشريف « الخلافة بعدى ثلاثون عاما ثم ملك بعد ذلك » ولو تدبرنا موقف الامام على بعد غزوة بدر الكبرى حين أبلى فيها بلاء حسنا ورجع منها حزينا لعدم استشهاده فى القتال فيقول له النبى صلى الله عليه وسلم « ابشر فان الشهادة من ورائك » لو تدبرنا هذين الحديثين لعلمنا أن له حظا فى الخلافة مع معرفة النبى عليه والسلام بموضعه فيها وتلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم . هنالك سلحه رسول الله بالعلم والجهاد والتقوى ليكون خليفة للمسلمين عند تفرق الحدثان وانقلاب الميزان .

لقد علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم علوم القرآن وبيان معجزاته واستنباط معانيه فكان له السبق فى هذا المضمار الفريد من معجزة النبى صلى الله عليه وسلم من التفسير والتأويل واقتحام القضايا التى يعجز عن حلها فطاحل العلماء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حتى أن عمر رضى الله عنه الذى اشتهر بغزارة علمه وفقهه يقول حين تعترضه قضية من القضايا « قضية ولا أبا الحسن لها » أى ليس لها الا أبو الحسن .

بهذه الخصوصية التى انفرد بها الامام على استحق لقب الامام ، فقد كان موسوعة علمية ربانية فاض علمها الغزير على الناس أجمعين وفى ذلك يقول الشيخ العلامة أبو حامد الغزالى رحمه الله « اعلم

أن أمير المؤمنين عليه السلام كان كثير السؤال لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن معانى القرآن وعن معانى كلامه فاذا لم يسأل رسول الله بدأه صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتثقيف ولم يكن أحد من أصحاب النبى كذلك بل كانوا أقساما : قسم يهاب أن يسأله وهم الذين كانوا يحبون أن يجيء الاعرابى أو الطارىء فيسأله وهم يسمعون .

والقسم الثانى كان بعيد الفهم قليل الهمة فى النظر والبحث . والقسم الثالث كان مشغولا عن طلب العلم ، اما بالعبادة ، واما بالدنيا ، والقسم الرابع وهم المقلدون الذين يرون فرضهم السكوت وترك السؤال » .

بهذا الفضل الذى أسبغه عليه النبى صلى الله عليه وسلم وقف على كرم الله وجهه فى موقف الحسد من مبغضية وشانئيه الذين ليس فى قلوبهم للدين من موقع غير البحث عن كوامن العلم وغرائب المعرفة فلا يستنكفون فى سؤاله كرم الله وجهه فاذا أجابهم بما يريدون استكثروا عليه الامامة واتهموه بما ليس فيه مستكثرين عليه ما عنده من علم وفطنة ، متناسين أو متجاهلين فضله وسابقته ونشأته وبيئته وحفظه للقرآن والسنة الشريفة ووقوفه على دقائق علم النبوة التى تعلمها من حبيبه صلى الله عليه وسلم ، لقد وفق فى علم الدين كما وفق فى علم الدنيا فأحال ما عنده الى علم غزير يتسع لمدارك الحياة بذكائه وفطنته وطهارة روحه واستجابته لدعوة النبى الكريم له « أقضاكم على » أى أفقهكم فى الدين . وأكثرهم معرفة بدقائق أموره ، وليس هناك منزلة أرفع من منزلة القاضى ، فالحاكم به يرضى والمحكوم عنه راض .

بهذه المزايا التى انتهت الى على كرم الله وجهه ورضى عنه فملك

بها جوامع الكلم وثمار العلم ليتقدم آل البيت الكريم رضوان الله عليهم منفردا بما لا يلحقه فيه لاحق ولا يسبقه سابق ، فكثر الجدل له وعليه ، فالتاريخ نفسه لم ينصف عليا ولا ذويه ، فقد خرجوا من الدنيا شهداء هذا العلم وتلك الفصاحة وأوذوا ايذاء بالغا مع شيعته ومحبيه ، وليس هذا بالمستغرب فى الامام كرم الله وجهه فمثله لا يرزق صداقة الالفاء لأنه من أصحاب المزايا التى تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة ، فهو عالم بليغ ذكى بوصول النسب بأعرق الأرومات ، فان لم يحسد هذا فمن يحسد !

« وان يحسد فما الذى يفل من غرب حاسديه ؟ وما الذى يفىء بهم الى القصد فى عدائه والتأليب عليه ؟

لقد استكثروا عليه صحبته للنبى عليه السلام ،
واستكثروا عليه علمه الغزير .

وبغضوه لشجاعته وفروسيته التى لا تنافس ، واستكثروا عليه الامارة والسلطان !

فالذين استكثروا عليه الصحبة انما ارتعدت فرائصهم من اجتماع بنى هاشم تحت لواء النبى وعلى .

والذين خشوا علمه ، انما خشوا بيان القرآن . أفبهذه الخشية يتغير القرآن ؟!

كان خوفهم أن يزجرهم بمكنون ما عنده حيث يقول الامام كرم الله وجهه فى هذا الصدد « ان فى أيدى الناس حقا وباطلا ، وصدقا وكذبا ، وناسخا ومنسوخا ، وعاما وخاصا ، ومحكما ومتشابها » .

وكان الذين خشوه هم التصنيف الثانى من كل ما ذكر !.
والذين هابوا امارته وسلطانه وحاولوا أن يستبعدوها عليه اذ

لا مطمع لهم فى هــذه الامارة على يديه ولا المنفعة وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق ، فنصيبه منهم نصيب المحسود الذى لا رجاء له فى هوادة من حاسديه ، وليس أحقد على الناس من صــاحب عظمــة لم يطمعوا فى نفعه ولم يزالوا فى طمع فى النفع من خصومه ، وبليتــه بهم أكبر وأدهى حــين لا يصـــطنع الدهــان • وهيــهات للامــام أن يداهن وهو أعلم أهل الأرض بدينه ودنياه •

فى خصم تلك المفارقات والمتناقضــات نشــأ الامام كرم اللهوجهه فى دنيــا أقبلت عليــه ثم أدبرت عنــه ، أما حينما أقبلت عليه فلم يغترف منها يعســوبا بل كان هــو اليعسوب الذى يلتف حوله المؤمنون ينهلون منــه حلو الشراب • وحينما أدبرت عنــه فقــد طــوى عنها كشــحا ولوى زمامها وصبر على لأوائها وأهوالها

لقــد صــدق مع الله ورسوله فمكن له الله والرسول فى الأرض وأســبغ عليه مولاه من الصفات ما هو بها خليــق ، فاذا تخيلت فتى الاســلام وســيفه فان ظنــك لا يتعداه ، فهو الاوحد فى هــذا المضمار الذى لم يهزم فيــه ، واذا اســتعرضت علماء الأمة فلا يسعك الا الثناء عليه فهو سنام العلوم الاسلامية وينبوع الأئمــة فى هذا المجال ، وهــو صاحب الفضل الأوفى اذا تحدث الناس عن الفضلاء لأنه لم يوجد فضل الا نحلوه اليــه •

فهو الامام الذى ثبتت امامتــه فى عصره وبعــد عصره ، وغرف من علمه الأئمة فى كل العصــور ومن كل العلوم ، فى الفقه والتوحيد ، وعلم الكلام ، وفى الشــعر والنحو والصرف والاشتقاق •

فهو الامام بلا خلاف والذى اذا أطلق فلا يصرف الى أحــد غيره من جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه •

لقد توافر له هذا الفضل الذى لم يتوافر لغيره من الصحابة حتى

كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وهو العالم المحدث يقول « لابقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » !

وما كان عمر الصريح ليقولها لولا ايمانه العميق بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال « أقضاكم على » .

من هذه البداية كان عمر رضى الله عنه حريصا على اظهار الحق من جوف المعضلة على لسان الامام على حتى قال « لا يفتين أحد فى المسجد وعلى حاضر » .

ولقد أخرج النسائى أن عليا كرم الله وجهه قال « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن وأنا شاب فقلت : يا رسول الله ، تبعثنى وأنا شاب الى قوم ذوى أسنان أقضى بينهم ، وليس لى علم بالقضاء ؟ فوضع يده صلى الله عليه وسلم على صدرى ثم قال : ان الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك » ثم أوصانى فقال « اذا جلس اليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فانك اذا فعلت ذلك تبدى لك وجه القضاء » .

ويقول الامام على كرم الله وجهه فى هذا الصدد « فلا والله ما أشكل على قضاء بعد ذلك » .

وتولى الامام على كرم الله وجهه قضاء اليمن فى أول عهده بالقضاء حتى أنه قضى لاثنين اختلفا فى قضائه فشكواه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمع منهما وعلم منهما ما قضاه الامام على فقال : « الحمد لله أن جعل الحكمة فينا آل البيت » !

* * *

الامـام .. وعلم التوحيـد

كان نصيب الامام على كرم الله وجهه من الثقافة الاسلامية غزيرا حتى رجحت كفته فى هذا الميدان ، كما كان له السهم الواضـح فى كل الميادين ، فهو صاحب الهداية الأولى فى التوحيد الاسلامى والقضـاء الاسلامى والفقـه الاسلامى ، وعلم النحو العربى ، ولا يفوتنا فى هذا المضمار فن الكتابة الذى تدرب عليه وهو فى باكورة صباه ، فهو بحق موسوعة اسلامية شاملة .

ومن ثقافته الواسعة تلك الحكم الغزيرة التى انفرد بها فى سـجل الحكماء فسرت مع الزمن عبر العصور ، كما كان الامام الاستاذ الأول فى علم التوحيد والحكمة الالهية لكل من لحق به من أصحاب الآراء وأصحاب المقـالات ، اذ له فى هذا المجال ما يرضى أذواق الباحثين فى العقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد .

وله فى فهم البلاغة المنسوب اليه فيض غزير فى مضمار علم الكلام وتنزيه الحق سبحانه وتعالى وكمال صفاته ووحدانيته . ومن أمثلة ذلك قوله كرم الله وجهه فى توحيد الله .

« الحمد لله الدال على وجوده بخلقه ، وبمحدث خلقه على أزليته وباشتباههم على أن لا شبه له ، لا تستلمه المشاعر ، ولا تحجبه السواتر ، لافتراق الصانع والمصنوع ، والحاد والمحدود ، والرب والمربوب ، الاحد بلا تأويل عدد ، والخالق لا بمعنى حركة ونصب ، والسميع لا بأداة ، والبصير لا بتفريق آله ، والشاهد لا بمشاهدة ، والبائن لا بتراخى مسافة والظاهر لا برؤية ، والباطن لا بلطافة ، بان من الأشياء بالقهر لهـا ، والقدرة عليها ، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع اليـه ، من وصفه فقد حده ، ومن حده فقد عده ومن عده فقد أبطل أزله ، ومن قال كيف فقد استوصفه ، ومن قال « أين » فقـد حيزه ، عالم اذ لا معلوم ، ورب اذ لا مربوب وقادر اذ لا مقدور » .

ذاك منتهى التوحيد عند أهل التوحيد ، فبهذا الأسلوب البليغ الذى اصطنع فيه جوامع الكلم والذى تعلمه الامام من النبى صلى الله عليه وسلم وآتت له اللغة واساقت أمامه المفردات فصنعها صنعة عالم مدرب على فن الكلم فاستقام له الاسلوب ووضح أمام السامع الرؤيا ، فالامام كرم الله وجهه يمتلك اسلوبا فخما مفخما مطبوعا بالسليقة الأدبية ، مغدقا بالبلاغة القرآنية مثمرا بالحكم الربانية .

فلنتأمله فى تلك الخطبة الطويلة لنرى تأثره بالقرآن وسنة النبى عليه السلام .. يقول كرم الله وجهه حين سأله سائل أن يصف الله كأنه يراه عيانا ، فغضب لذلك وقال :

« الحمد لله الذى لا يفره المنع والجود ، ولا يكديه ــ لا يفقره ــ الاعطاء والجود ، اذ كل منتقص سواه ، وكل مانع مذموم ما خلاه ، وهو المنان بفوائد النعم ، وعوائد المزيد والقسم ، عياله الخلق ضمن أرزاقهم وقدر أقواتهم ، ونهج سبيل الراغبين اليــه والطالبين ما لديه ، وليس بما سأل بأجود منه بما لم يسأل ، الأول الذى لم يكن له قبل ، فيكون شيء قبله ، الآخر الذى ليس له بعد فيكون شيء بعده ، الرادع أناسى . جمع انسان العيون ــ الابصار ، على أن تناله أو تدركه ، ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال ، ولا كان فى مكان فيجوز عليه الانتقال ، ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال ، وضحكت عنه أصداف البحار من فلز اللجين ــ الجوهر النفيس ــ والعقيان ونثارة الدر وحصيد المرجان ، ما أثر ذلك فى جوده ، ولا انفد سعة ما عنده ، ولكان عنده من ذخائر الانعام مالم تنفده مطالب الانام ، لأنه الجواد الذى لا يغيضه ســؤال الســائلين ، ولا يبخله الحاح الملحين .

فانظر أيها السائل فما دلك القرآن عليه من صفته فائتم به واستضىء بنور هدايته ، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس فى الكتاب عليك فرضه ، ولا فى سنة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة الهدى أثره ، فكل علمه الى الله سبحانه ، فان ذلك منتهى حق الله عليك »

واعلم أن الراسخين فى العالم هم الذين أغفاهم عن اقتحام السدود ، المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم النعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا ، فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين هو القادر الذى اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس ، أن يقع فى عميقات غيوب ملكوته وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف فى الغيوب متخلصة اليه سبحانه ، فرجعت اذ جبهت ، معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته .

الذى ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ، ولا مقدار احتذى عليه ، من خالق معبود كان قبله ، وأرانا من ملكوت قدرته وعجائب ما نطقت به آثار حكمته ، واعتراف الحاجة من الخلق الى أن يقيمها بمساك قوته ، ما دلنا باضطرار الحجة له على معرفته ، وظهرت فى البدائع التى أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته ، فصار كل ما خلق حجة له ودليلا عليه ، وان كان خلقا صامتا ، فحجته بالتدابير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة » .

ذاك نذر قليل من معرفة امام العلوم فى معرفة ربه عز وجل ، رفع لواء التوحيد فى دولته فثبت العقائد بعد أن كثرت الفتوح فى دولته واختلط العرب بكل الشعوب ، فنهض نهوض الابطال الغيورين يذكر الناس بالعلم والمعرفة ليسموا بالمؤمن الى منزلة الفضل والكمال ، خاض الامام كرم الله وجهه فى أعلياء الكلمة خوض حكيم يعرف موضع الداء فاذا به يبصرهم بمواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ، ويرشدهم الى دقائق الحكمة ويبصرهم بطوق النجاة بفنون بديعية مسترسلة كماء عذب يروى الظامىء فى صحراء الهجير فقد كانوا كما يقول كرم الله وجهه « انى أريدكم لله وأنتم تريدوننى لأنفسكم » .

فليس بعد هذا القول وذاك الكلام الرفيع الا كلام الله عز وجل شأنه وكلام سيد المرسلين محمد الرسول الأمين الكريم صلى الله عليه وآله وسلم .

تلك نبذة قصيرة من علمه فى التوحيد كرم الله وجهه وأصول التأليه لله رب العالمين ، حتى أن الفلاسفة وقفوا عاجزين أمام علم الامام فى هذا المضمار فأسموه بحكيم العرب ، وامام الأئمة ، وكما اسماه حسن البصرى « ربانى هذه الأمة ! » .

ومما لا شك فيه أن التوحيد هو الركن الركين فى الاسلام لأنه أصل الأصول ، ولذلك اهتم به الامام على كرم الله وجهه واعطاه حقه فى علم الكلام وعلم التوحيد وعنه كرم الله وجهه أخذ « المعتزلة » أصول علم التوحيد .

فالمعتزلة وهم الذين يسمون بأهل العدل والتوحيد قد أخذوا هذا العلم الغزير من بيت محمد ابن الحنفية بن على بن أبى طالب . فقد علم ابنه الحسن غيلان الدمشقى الذى انطلق فى الشام فى بداية عهد المعتزلة بعد أن نباهى به الحسن فى موسم الحج وقال كما جاء ذلك فى كتاب « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » قال انه حجة على أهل الشام ولكن هذا الفتى مقتول . !

نبعت هذه الفكرة فى البيت العلوى ، فتلقفها جيل من الموالى فجعلوا منها تيارا فكريا من أبرز التيارات الفكرية فى الاسلام .

ويذكر فى كتاب « اللباب فى تهذيب الانساب » أن غيلان هذا كان مولى لعثمان بن عفان وهو من أصل مصرى (قبطى) ولذلك يلقب بغيلان القبطى .

ثم جاء من بعده واصل بن عطاء وهو من موالى بنى هاشم وقد أخذ العلم من الحسن بن محمد ابن الحنفية .

ثم توالى بعد ذلك المبرزون فى هـذا المضـمار الثرى من الفكر الاسلامى الذى أدحض حجج المعادين للاسلام وللتوحيد ، وكان ابرزهم الحسن البصرى المؤرخ المشهور حتى قيل انه اشتهر بأنه العالم فى الفتن والدماء ، أى الثورات والحروب ، وكذلك عمرو بن عبيد وغيرهم كثير ولا يهمنا فى هذا المجال الا أن نبرز أصل علم التوحيد عندهم وتنزيه الله سبحانه وتعالى كما نزهه القرآن والسنة المحمدية .

ومن السمات التى امتاز بها المعتزلة أنهم كانوا فى الفكر الاسلامى طلائع ذلك النوع من المفكرين الذين نسميهم « الفلاسفة الالهيون » .

لقد حاول المعتزلة كما يذكر الأشعرى فى كتابه « الابانة عن أصول الديانة » حاول المعتزلة أن ينهضوا بالمهمة الصعبة بل بأصعب المهـام التى تطرح فى أية ثقافة من الثقافات . فمن السهل أن ينحو الانسـان منحى يكتفى فيه عن الفلسفة بالدين أو العكس ، أما أن يجتهد كى تتدين الفلسفة ويتفلسف الدين دون تزيد أو اخلال أو تلفيق ، فتلك أصعب المهام . وتلك هى المهمة التى ارتاد المعتزلة ميدانها فى حضارتنا الاسلامية.

و « الجاحظ » يضع يدنا على نهج المعتزلة وسبيلهم عندما يقول : وليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا من الصناعة يصـلح للرياسة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسـفة ، والعالم عندنا هو الذى يجمعهما والمصيب الذى يجمع تجميع وتحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقهـا من الأعمال ، ومن زعم أن التوحيد لا يصح الا بابطال حقائق الطبائع فقد حمل بحجزه على الكلام فى التوحيد ، وكذلك اذا زعم أن الطبـائع لا تصلح اذا قرنهـا بالتوحيد ، ومن قال ذلك فقد حمل عجزه على الكلام فى الطبائع ، وانما ييأس منك الملحد اذا لم يدعك التوفر على التوحيد الى بخس حقائق الطبائع ، لأن فى رفع أعيانها رفع أعمالا ، واذا كانت الأعمال هى الدالة على الله ، فرفعت الدليل فقد أبطلت المدلول عليه ، ولعمرى ان فى الجمع بينهما لبعض الشدة » .

وأنا أعوذ بالله تعالى كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل نقضت ركنا من أركان مقالتى ، ومن كان كذلك لم ينتفع به » •

والمعتزلة يختلفون مع أهل الحديث وأهل السنة فى تعـداد الأدلة وترتيبتها فهى عند أهل السنة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع • على هذا الترتيب • بينما هى عند المعتزلة هى : العقل ، ثم الكتاب ، ثم السنة ، ثم الاجماع • ليقينهم أن الله تعالى لم يخاطب الا أهل العقل ولأن بالعقل يعرف الكتاب وكذلك السنة والاجماع •

ويقول « ابن جميع » فى كتابه « متن عقيدة التوحيد » :

أولا : على يد المعتزلة كانت نشأة علم الكلام ـ وهو العلم الذى عبر عن أصالة هذه الأمة وذاتيتها ، فلم يكن تقليدا للفلســفة اليونانية وترديدا لمقولاتها ولم يكن وقوفا عن ظواهر نصوص الكتاب والسنة ، وانما كان معالجة فلسفية بأدوات الفلسفة لقضايا الدين والحياة الخاصة بهذه الأمة ، ومن ثم فان فيه المـادة لمن يريد أن يلتمس ما أبدعه العرب والمسلمون فى الفلســفة والفكر الدينى ، على السواء ولا يستطيع أحد أن ينازع فى أن نشأة علم الكلام كانت من ابداع المعتزلة ، وانهم ظلوا دائما وابدا أعظم الفرسان فى ميدانه ، وكما يقول الحاكم أبو الســعد محسن بن كرمة الجشعى ٤١٣ ـ ٤٩٤ هـ • وجملة القول أن المعتزلة هم الغالبون على الكلام ، الغالبون على أهله ، فالكلام عندهم ومنهم بدأ وفيهم نشأ وهم السلف فيه ، ولهم الكتب المصنفة المدونة والأئمة المشهورة ولهم الرد على المخالفين من أهل الالحاد والبدع ، ولهم المقامات المشهورة فى العرب عن الاسلام وكل من أخذ الكلام ، أو ما يوجد من الكلام فى أيدى الناس ، فمنهم أخذ ومن أئمتهم اقتبس » •

ثانيا : ان فرقة من فرق الاسلام لم تتصد لمناهضة خصــومه كما تصدت لهم المعتزلة ، وفى مقدمة أسباب ذلك تقريبا أنهم كانوا الفرقــة الوحيدة المؤهلة لذلك والقادرة على انجاز هذا الهدف بنجاح •

فالخوارج كانوا فى شغل عن ذلك بالحرب المتصلة التى لا تدع وقتا ولا جهدا للفكر النظرى ومجاولة خصوم الاسلام .

والشيعة ، كانوا فى شغل باتقاء اضطهاد الامويين وتجسيد أحزانهم ومأساتهم كى تتحول الى رباط عاطفى يكسب الانصار ، ويديم لفرقتهم البقـاء ، كما شغلوا بنظرياتهم فى الامامة وفضـل أهل البيت عن كل شىء .

والمرجئة والجبرية الأموية كانوا أهل « حشو » يقفون عند ظواهر النصوص ومن ثم فلا جلد لهم ولا مقدرة على جدل خصوم الاسـلام بمنطق أرسطو وفلسفة الهند واليونان . أما المعتزلة فقد كانوا هم الفرقة الاسلامية التى تصدت للدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، بل واتخذت موقع الهجوم على هؤلاء الخصوم .

ولقد اعتنقت المعتزلة خمسة أصول بنت عليها فكرها التحررى وهى:

العدل ، والتوحيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والوعـد والوعيـد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ولقد وقف المعتزلة عند أصولهم على هـذه الخمسة أصول لأنهم كما قال « أبو ريدة » فى كتاب ابراهيم بن سيار « النظام وآراؤه الفلسفية والكلامية » المطبوع بالقاهرة عام ١٩٤٦ م يقول :

ان هذه المبادىء الأساسية التى يقع فيها الاختلاف بينهم وبين كل الفرق ، فللعدد هنا حكمة وأسباب .

والقاضى عبد الجبار يجيب من سـأله : ولم اقتصرتم على هـذه الأصول الخمسة ؟

فيقول : انه لا خلاف ، ان المخالف لنـا لا يعدو أحد هذه الأصول ألا ترى أن خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قـد دخـل فى التوحيـد ؟ !

وخلاف المجبرة بأسرهم قد دخل فى باب العدل ؟

وخلاف المرجئة دخل فى باب الوعيد .

وخلاف الخوارج دخل تحت المنزلة بين المنزلتين ؟

وخلاف الامامية دخل فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟!

والذى يعنينا فى هذا المقام الذى نحن بصدده أن المعتزلة قدمت فى التوحيد تصورا بلغ قمة التنزيه الالهى والتجريد فى الفكر الاسلامى والانسانى على الاطلاق لأنهم استمدوا ذلك التنزيه كما يقولون من أشرف البيوتات وهو البيت العلوى بدءا من محمد ابن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

ولقد استند المعتزلة فى فكرهم التنزيهى هذا الى نقاء عقيدة التوحيد فى الاسلام، كما صورتها الآيات المحكمة من القرآن الكريم فى رأيهم، وكما وردت فى خطب الامام على كرم الله وجهه فصاغوا تصورهم هــذا فى مواجهة عديد من الأديان الأخرى والفرق والملل والنحــل التى تردت فى هاوية الشرك .

فلقد رأوا فى التثليث المسيحى تشبيها بلغ حد القــول « بالحلول والاتحاد » بل رءوا أن جوهر الخلاف بين الاسلام والمسيحية منحصر فى هذا الموضوع ، ومن هنا كان قول القاضى عبد الجبار وهو أحد أعمدتهم الفكرية ، أن الكلام مع النصارى يقع فى أحد موضعين :

أحدهما : فى التثليث ، فانهم يقولون . انه تعالى جوهر واحــد ، وثلاثة أقانيم ، أقنوم الأب ، يعنون به ذات البارى عز اســمه ، وأقنوم الابن ، أى الكلمة ، وأقنوم روح القدس ، أى الحيــاة ، وربما يغيرون العبارة فيقولون انه ثلاثة أقانيم ذات جوهر واحد .

والموضوع الثانى :

فى الاتحاد ، فقد اتفقوا فى القول به وقالوا : انه تعالى اتحد بالمسيح

فحصل للمسيح طبيعتان ، طبيعة ناسوتية ، وأخرى لاهوتية » .
وهكذا هاجم المعتزلة كل الفرق التى تمس وحدانية الله سبحانه وتعالى عما يصفون .

وليس بنا حاجة فيما نحن بصدده لشرح موقف المعتزلة من الأصول الخمسة بين جميع الفرق الاسلامية . انما يعنينا فى المقام الأول تنزيه الله سبحانه وتعالى ، ذلك التنزيه الذى أقرت به المعتزلة والتى استمدت روح التوحيد فيه من كتاب الله القرآن العظيم بالعقل المنير وسـنة المصطفى الهادى سيد بنى آدم أجمعين وعلم الامام على كرم الله وجهه ! !

* * *

بعد أن تبين لنـا موقف المعتزلة فى انتسابها الى الامام على كرم الله وجهه وموقف الخوارج الذين خرجوا عن طاعته وكفروا السلف والخلف وتشعبوا الى عدة فرق تنتمى كل فرقة الى رأس من رءوسها ، فحاربوا المسلمين عامة ابتداء من الامام على كرم الله وجهه وهو أمير المؤمنين حتى الدولة الأموية .

بعد هذا يجدر بنا ونحن فى هذا الصدد أن لا نتجاهل فرقة الشيعة التى تشيعت للامام على كرم الله وجه وآل البيت .

اختلف المؤرخون فى بداية عهد الشيعة .

فأنصار على كرم الله وجهه الذين حاربوا معه ممكن أن يطلق عليهم لقب الشيعة « أى أنصاره فى كل معاركه .

ومن المؤرخين من ينسب نشأتها منذ يوم السقيفة حين بايع الأنصار أبا بكر الصديق رضى الله عنه فينسبون نشأتها فى ذلك الحين لاعتقادهم أن عليـا أحق بالخلافة ممن سواء بالنص والوصية كما يقولون .

ومنهم من ينسب نشأتها فى عهد الحسن بن على رضى الله عنهما منذ أن بايعوه على القتال واجتمع لديه الجند المنظم والجيوش .

الا أن هناك من ينسبها الى أبعد من ذلك بكثير ، حين قتل الامام على كرم الله وجهه عمرو بن ود فى غزوة الخندق فقالت أخت عمرو المقتول شعرا أشادت فيه بالقاتل وأبيه

وقد يكون هذا صحيحا من ناحية العاطفة ولكنه ليس بالتشيع الفنى لهذا المصطلح .

فالتاريخ المقترن بنشأة الشيعة وتنظيمها يرجع الى الفترة الزمنية التى نشأت فيها عقيدة النص ودعوى الوصية — كما يعتقد الشيعة — من الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى على بن أبى طالب .

ومن هنا كان صواب المعتزلة عندما قالوا : ان فترة امامة جعفر الصادق وهى التى نهض فيها هشام بن الحكم بدور واضع قواعد التشيع وبنائه الفكرى .

فالقول بالوصية لم يعرف قبل زمن هشام بن الحكم وهو الذى ابتدع هذا القول كما يذكر « القاضى عبد الجبار » أنه أى التشيع قد حدث قريبا وانما كان من قبل يذكر الكلام فى التفضيل ، ومن هو أولى بالخلافة وما يجرى مجراه ... » .

كما تنسب أيضا مصادر التاريخ والفكر الاسلامى الى ابن السوداء الذى حرض الناس على قتل عثمان رضى الله عنه ولعب دورا كبيرا فى اذكاء الفتنة فى ذلك الحين بين المسلمين على نشأة الشيعة عندما ذهب الى الكوفة يظهر للناس تعظيم على بما لا يرضاه على . فسار خلفه الاعراب البوادى والاجلاف ومن ليس عندهم ذرة من دين . بل انه استقصر عندهم فضل أبى بكر وعمر وعثمان وفضل عليا عليهم .

لقد أطال المؤرخون من عرب ومستشرقين فى هذه القضية عن نشأة الشيعة وعقيدتها وأصولها وعن عقيدة النص والوصية والامامة .

الا اننا نقول ان الشيعة قد نشأت قبل ما يذكرون بعهد بعيد .

ولا يعنينا هنا التنظيم والمصطلح الفنى لها بقدر ما يعنينا هذا التشيع الفريد للامام فى صفحات التاريخ .

فالتشيع للامام جاء بعد اسلامه وهو بعد فتى صغير لم يسجد لصنم قط فى بيت ملىء بالأصنام .

كما ازداد هذا التشيع فى مناصرته للنبى صلوات الله وسلامه عليه حين خزل من جبابرة قريش من أهله وذويه .

وتيقن التشيع له فى النفوس عنـد نومه فى فراش الهجرة النبوية متحديا سيوف فتيان قريش .

كما ازداد هذا التشيع بقتله فارس الجزيرة العربية وقتذاك والذى هابته كل الاقران بلا استثناء فيخرج اليه وهو فتى فيقتله شر قتله .

ونشأ التشيع له فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم حين أحبه قوم وبغضه آخرون فحبب اليه النبى صلوات الله وسلامه عليه مبغضيه ودعا له ربه ، أمام الناس أجمعين .

وتشيع له الحق والعدل فاستشهد من أبنائه مائتين وثمانون شهيدا صرعى الحق والواجب ، قدموا دماءهم الذكية فى سـبيل الله بقلوب مطمئنة ونفس راضية مرضية وكان الامام على أولهم .

هذا هو التشيع كما يفهمه المحبون أما الأصول والفروع فتلك قضية أخرى يطول بحثها وليس لنـا فى بحثنا هذا لهـا من سبيل !

***

الامام ‥ واسس علم الحديث

لا جرم أن يكون الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه له قصب السبق فى علم الحديث شأنه فى ذلك كعلم التوحيد ، فهو أول من صنف علوم الدين ، ولم لا ، وهو أول من أكرمه الله بشرف الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويسر له سبل القدوة وحسن التلقى ، كما أكرمه بكرم البيئة الهاشمية التى نشأ فيها والبيت الفاطمى ، ان من كان هذا شأنه جدير به وهو صاحب الفطنة أن ينطق بالحق وينتهى الى الحق فى كل فعل أو قول حيث قال فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل الحق معه حيث دار » ٠

من هذا المنطلق التربوى والنشأة النبوية العالية اهتدى الامام كرم الله وجهه الى معالم الهدى ، ونأى عن متاهات الضلال ، فأصاب لب الحقيقة فى علم الحديث وهو الذى كتب الوحى ودون رسائل النبى عليه السلام الى العرب والملوك ٠

ولقد فند الامام على كرم الله وجهه ما بأيدى الناس من علوم وحكم وأحكام حيث قال :

ولقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام خطيبا فقال :

« من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ٠

ويقول الامام مستطردا :

« وانما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس :

أحدهم : رجل منافق مظهر للايمان متصنع بالاسلام لا يتأثم ولا

يتحرج يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم متعمدا ، فلو علم الناس بأنه منافق كاذب لم يقبلوا منه ، ولم يصدقوا قوله ، ولكنهم قالوا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه وسمع منه فلا يجدون مندوحة عن الأخذ بقوله ، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبر ووصفهم بما وصف ، ثم بقوا بعده ، تقربوا الى أئمة الضلال والدعاة الى النار بالزور والبهتان فولوهم الأعمال وجعلوهم حكاما على رقاب النـاس ، فأكلوا بهم الدنيا ، وانما الناس مع الملوك ومع الدنيا الا من عصم الله ، فهذا أحد الأربعة .

وثانيهم : رجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذبا فهو فى يديه يرويه ويعمل به ويقول أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه ، ولو علم أنه كذلك لرفضه .

وثالثهم : رجل سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم شـيئا أمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم ، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر بـه وهو لا يعلم ، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه ، ولو علم المسلمون اذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه

ورابعهم : رجل لم يكذب على الله ولا على رسوله ، مبغض للكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص عنـه ، فهو حفظ الناسـخ فعمل به وحفظ المنسـوخ فجنب عنه ، وعرف الخاص والعام والمحكم والمتشابه ، فوضع كل شيء موضعه ، وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام له وجهان : فكلام خاص ، وكلام عام فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ولا ما عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله ، وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليـه

وسلم من كان يسأله ويستفهمه حتى أنهم كانوا يحبون أن يجيء الأعرابى والطارىء فيسأله صلى الله عليه وسلم حتى يسمعوا .

ثم يقول الامام كرم الله وجهه فى نهاية هذا التصنيف الفريد لرواة الحديث : كان لا يمر بى من ذلك بشىء الا سألته عنه وحفظته ، فهـذه وجوه ما عليه الناس فى اختلافهم وعللهم فى رواياتهم » .

بهذا التصنيف الرفيع اقتدى أئمة علم الحديث وعلى نمطه عللوا ومحصوا وبحثوا فى المتون والأسانيد والرواة يستخلصون منهم الثقات الذين يخافون الله سبحانه ويعظمون رسوله صلى الله عليه وسلم فى كل قول وكل فعل .

ولو أننا تأملنا أحاديث أمير المؤمنين عليا فى كتب الحديث لوجدناه من أقل المحدثين هو والخلفاء الراشدون المهتدون ، وليس هناك من علة فى هذا غير أنهم كانوا يفعلون أكثر مما يتكلمون

الا أن الذين جمعوا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحروا الدقة البالغة فى كل حديث من أحاديث النبى الاعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه قد نهجوا نهج الامام على فى تصنيفهم وما يجرى على لسانه من الحكمة فى ترجمة القرآن العربى بلسان النبى المبين الذى أوتى جوامع الكلم ، فتلقف الصحابة الأبرار أقوال النبى وأفعـاله فحفظوها حفظـا وتمسكوا بها هديا فتوارثها من بعدهم التابعون المخلصون فالتابعون لهم باحسان فوضعوا مقاصدها على مقاصد الشريعة المطهرة فأصول الدين فالعبادات والمعاملات ، والوصايا ، والحـدود وانظمة الدولة والمجتمع وأحاديث الجهـاد ، والسـير ، والمغـازى ، والمناقب ، والبشـائر ، والنـذر ... الخ .

وتلك الأصول الشرعية انما ازدان بها نهج البلاغة فى أحاديث وخطب ومواعظ أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فهو السابق فى هذا المضمار

وكل من دون بعد ذلك فهم اللاحقون . ولقد أوجز أمير المؤمنين عليه السلام في كلمة وجيزة جمع فيها أركان الدين في قوله :

« ان أفضل ما توسل به المتوسلون الى الله سبحانه وتعالى هو الايمان به وبرسوله ، ثم الجهاد في سبيله فانه ذروة الاسلام ، وكذلك كلمة الاخلاص فانها الفطرة ، واقام الصلاة فانها لله ، وايتاء الزكاة فانها الفريضة الواجبة ، وصوم رمضان فانه جنة من العقاب ، وحج البيت واعتماره فانهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب ، وصلة الرحم فانها مثراة في المال ومنسأة في الأجل ، وصدقة السر فانها تكفر الخطيئة ، وصدقة العلانية فانها تدفع ميتة السوء وصنائع المعروف فانها تقى مصارع الهوان ، أفيضوا في ذكر الله فانه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقون فان وعده أصدق الوعد ، واقتدوا بهدى نبيكم فانه أفضل الهدى واستنوا بسنته فانها أهدى السنن ، وتعلموا القرآن فانه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فانه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره فانه شفاء للصدور ، وأحسنوا تلاوته فانه أحسن القصص ، وان العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق من جهله ، بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم ، وهو عند الله ألوم .

بهذه الكلمات الموجزات جمع أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه دعائم الدين بأسلوبه الجامع للحكمة والمؤثر في الموعظة والزاجر المنكر للأهواء ، فيلهم النفس رشادها ويقوم منها مرادها ، وينفر بها من مداحض الزلل ، الى جواد الفضل والكمال .

بهذه الدعائم الكاملة صنف المصنفون في علم الحديث ، واجتهد على هديها المجتهدون من أئمة المسلمين ، متمسكين بالحق منفرين من الباطل متتبعين هدى النبى المختار وابن عمه الذى كان يقول لأصحابه « ليس بين الحق والباطل الا أربع أصابع » فسألوه عن معنى ذلك فجمع أصابعه الأربعة ثم وضعها بين عينيه وأذنيه ثم قال والقوم يشهدون ويسمعون : الباطل أن تقول سمعت ، والحق أن تقول رأيت » .

وتلك حكمة يعمل بها المنصفون في كل زمان !

لم يكن الامام على كرم الله وجهه أول من كتب الرسائل والقى العظات ولكنه بلا شك أول من عالج هذا الفن من علم الكلام معالجة أديب بليغ فأضفى عليها صبغه الانشاء الذى يقتدى به فى الأساليب ، لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة معالجين لا صياغة منشئين ، ويتصدون الى أداء ما أرادوا ولا يقصدون الى فن الأداء وصناعة التعبير .

فقد تعلم الامام كرم الله وجهه الكتابة صغيرا ودرس الكلام البليغ روايات الألسن وتدوين الأوراق وبداهة البادية ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأدنى الى طور التفنن والتجويد ، فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الانشاء الفنى فى اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته الادبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الاسلامية .

فالمتأمل فى أسلوب الامام على كرم الله وجهه يرى تأثره البالغ بالقرآن الكريم الذى دونه رطبا من لسان النبى صلى الله عليه وسلم ثم حفظه ووعاه فى قلبه ليستضىء به فى ظلمات الحياة .

فجاء أسلوبه وضيحا منفصاحة القرآن ومقتضبا منمعانيه وألفاظه ومذاهبه ، فكان أسلوبه عميقا جزلا مفخما ، ولا غرابة فى ذلك فهو ربيب الرسول أفصح العرب لسانا وأصدقهم بيانا . الا أن تلك الفصاحة لا تتأتى الا لمن أضاء القرآن روحه واستولى الايمان على جنباته

وهذب العدل والانصاف مقاماته ، فنطق لسانه بجزيل اللفظ وبديع العبارة ، وهداه ايمانه الى الاسترسال فى التفسير مستلهما معانى القرآن بما وقر فى قلبه من ايمان عميق ونور مضىء لحروفه . فها هو الامام كرم الله وجهه يصف القرآن وعظمته يقول بعد أن أثنى على النبى صلى الله عليه وسلم : « ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه ، وسراجا لا يخبو توقده ، وبحرا لا يدرك قعره ومنهاجا لا يضل نهجه ، وسراجا لا يظلم ضوؤه ، وفرقانا لا يخمد برهانه ، وتبيانا لا تهدم أركانه ، وشفاء لا تخشى أسقامه ، وعزا لا تهزم أنصاره وحقا لا تخذل أعوانه ، فهو معدن الايمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ورياض العدل وغدرانه ، وأسافى الاسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها السائرون ، وأحكام لا يجوز عنها القاصدون ، جعله الله ريا لعطش العلماء ، وربيعا لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ، ونورا ليس معه ظلمة ، وحبلا وثيقا عروقه ومعقلا منيعا ذروته ، وعزا لمن تولاه ، وسلما لمن دخله ، وهدى لمن ائتم به ، وعذرا لمن انتحله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، وفلجا لمن حاج به ، وحاملا لمن حمله ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلأم ، وعلما لمن وعى ، وحديثا لمن روى وحكما لمن قضى » .

والامام على كرم الله وجهه أول من اعتنى بالقرآن الكريم فهو أول من دونه وأول من جمعه ورتبه وخير من حفظه حفظا وهضمه هضما . كما تذكر كتب القراءات أن أئمة القراء جميعا يرجعون الى على ، كأبى عمرو بن العلاء الحضرمى ، وعاصم بن أبى النجود وغيرهما ، فهم يرجعون الى أبى عبد الرحمن السلمى القارىء ، وأبو عبد الرحمن كان تلميذا للامام وعنه أخذ القرآن ، فصار هذا العلم أيضا ينتهى الى الامام كما انتهى اليه علم الكلام وعلم الفقه وعلم الحديث وكما انتهى اليه علم النحو فى الكلمات التى قالها لأبى الأسود الدؤلى .

كان تأثر الامام على كرم الله وجهه بالقرآن واضحا فى أسلوبه وفى تفسيره وفهم معانيه . فها هو يتلو قوله تعالى « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » فيتمايل معبرا عما يجيش به صدره من تلك الكلمات فيقول :

« يا له من مراما ما أبعده ، وزورا ما أغفله ، وخطرا ما أفظعه ؟ لقد استحلوا منهم أى مدكر ، — أى وجدوا ذكر من مضى من آبائهم خالياً من الاعتبار — فتناوشوهم من مكان بعيد !

أفبمصارع آبائهم يفخرون ، أم بعديد الهلكى يتكاثرون ، يرتجعون منهم أجسادا خوت ، وحركات سكنت ، ولأن يكونوا عبرا أحق من أن يكونوا مفتخرا ، ولأن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة !

لقد نظروا اليهم بأبصارهم العشوة ، وضربوا منهم فى غمرة جهالة، ولو استنطقوا منهم عرصات تلك الديار الخاوية والربوع الخالية لقالت: دهبوا فى الأرض ضلالا ، وذهبتم فى أعقابهم جهالا ، تطئون فى هامهم وتستنبتون فى أجسادهم وترتعون فيما لفظوا ، وتسكنون فيما خربوا ، وانما الأيام بينكم وبينهم بواكى ، ونوائح عليكم ، أولئكم سلف غايتكم، وفراط مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم العز وحلبات الفخر ملوكا وسوقا » .

وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه عند تلاوته الآيتين ٣٧ ، ٣٨ من سورة النور « يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .

ان الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد به بعد المعاندة ، وما برح لله — عزت آلاؤه — فى البرهة بعد البرهة وفى أزمان الفترات ، عباد ناجاهم فى فكرهم وكلمهم فى ذات عقولهم فاستصبحوا بنور يقظة فى الابصار ،

والأسماع والأفئدة ، يذكرون بأيام الله ، ويخوفون مقامه ، بمنزلة الأدلة في الفلوات ، من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه ، وبشروه بالنجاة ، ومن أخذ يمينا وشمالا ذموا اليه الطريق ، وحذروه من الهلكة ، وكانوا كذلك مصابيح تلك الشبهات ، وان للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا ، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه ، يقطعون به أيام الحيـاة ، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط ويأتمرون بـه ، وينهون عن المنكر ، ويتناهون عنه ، فكأنهم قطعوا الدنيـا الى الآخرة وهم فيها ، فشاهدوا وراء ذلك ، فكأنما اطلعوا على غيوب أهل البرزخ في طول الاقامة فيه ، وحققت القيامة عليهم بحوائها ، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا ، حتى كأنهم يرون مالا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة ، ومجالهم المشهودة ، وقد نشروا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بهـا فقصروا عنها ، أو نهوا عنها ففرطوا فيها ، وحملوا ثقل أوزارهم على ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها فنشجوا نشيجا وتجاوبوا نحيبا يعجون الى ربهم من مقام ندم واعتراف ـ لرأيت أعلام هدى ومصابيح دجى قد حفت بهم الملائكة وتنزلت عليهم السـكينة ، وفتحت لهم أبواب السـماء وأعدت لهم مقاعد الكرامات ، في مقام اطلع الله عليهم فيه ، فرضي سعيهم وحمد مقامهم » .

تفسير لا يتمكن منه الا الامام ، فكأنه قد نفث عن صـدره بمـا يحتمل في نفسه من هموم الدنيا وأشجانها ويوم البكاء والخوف منه عند الجليل ، لقد أرانا مقامات الأبرار ومنازل الصالحين وأشواق الابدال الذين يطلع عليهم المولى عز وجل فينفث في روعهم بآيات الهدى فيسعى المعروف بين أيديهم في دنيا تنكرت له وادلهمت عليه .

وقال عند تلاوته كرم الله وجهه ورضي الله عنه « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم » (الانفطار : ٦) .

« أدحض مسئول حجة ، واقطع مغتر معذرة ، فقد أبرح جهـالة بنفســه !

يا أيها الانسان ما جرأك على ذنبك ، وما غرك بربك ، وما أنساك مهلكة نفسك ، أما من دائك بلول ، أم ليس من نومك يقظة ! أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك ! فربما ترى الضاحى فى حر الشمس فتظله أو ترى المبتلى بألم يمض جســده فتبكى رحمه له ! فما صبرك على دائك ، وجلدك على مصابك ، وعزاك على البكاء على نفسك ، وهى أعز الأنفس عليك ؟! لا يوقظك خوف بباب نعمة وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته ، فتداوى من داء الفترة فى قلبك بعزيمة ، ومن كرى الغفلة فى ناظرك بيقظة ، وكن لله مطيعا ، وبذكرة آنسا ، وتمثل فى حال تدليك عنه اقباله عليك ، يدعوك الى عفوه ، ويتغمدك بفضله وأنت متولى عنه الى غيره ! فتعالى من كريم ما أكرمه ، وتواضعت من ضعيف ما جرأك على معصيته ! وأنت فى كنف ستره مقيم ، وفى سعة فضــله متقلب ! فلم يمنعك فضله ولم يهتك عنك ستره ، بل لم تخل من لطفه طرفة عين فى نعمــة يحدثها لك ، أو سيئة يسترها عليك ، أو بلية يصرفها عنك ، فما ظنك لو أطعته ؟!

وايم الله لو أن هذه الصفة كانت فى متفقين فى القوة متوازين فى القــدرة ، فكنت أول حاكم على نفســك بزميم الأخــلاق ومساوىء الأعمال .

وحقا أقول ، ما الدنيا غرتك ، ولكن بها اغتررت ، ولقد كاشفتك العظات وآذتتك على سواء ولهى لـــا تعدك من نزول البــلاء بجسمك والنقص فى قوتك ، أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغرك ، ولرب ناصح لهـــا عندك متهم ، وصادق من خيرها مكذب !

زواجر ونواهى رادعة فى ضوئها المرشد ونبضها الدافىء ، تهدهد

المتقين وتسمو بهم فى عليـاء النعيم وتزجر كل حريص على الدنيا مقيم لهـا ومشغول بزهرتها .

* * *

فالمتدبر فى عظات الامام كرم الله وجهه يرى البرهان العقلى والحسى الذى يأخذ بيد الفطرة السليمة السوية الى الايمان البصير بالله الأحد الصبور على معاصى العبـاد .

الامام ٠٠ والتحكيم

حين نشب القتال بين الامام على كرم الله وجهه وبين معاوية بن أبى سفيان فى معركة « صفين » ومالت كفة النصر وبشائره لجيش أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، ظهرت خديعة عظمى من جانب جيش معاوية ، فقد رأى الامام المصاحف الشريفة ترفع على أسنة الرماح من قبل جيش الشام ومن هنا بدأ الانفجار !

قبل معركة صفين الشهيرة ، كانت معركة « الجمل » التى قادتها السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وكان ذلك بعد بيعة الامام على بقليل والذى بويع له بالاجماع بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه — وكان سبب هذه الحرب أن طلحة والزبير كانا يطالبان الامام على بدم عثمان ومعهما أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقد كانت على رأس المطالبين بالقصاص٠ ولقد كثرت تعليلات وتحليلات وتخمينات الباحثين حول دوافع هذه الحرب وأسبابها ، حتى فى العصر الحديث ، فقد سلط عليها الباحثون والمؤرخون والكتاب من ذوى النوايا المغرضة الأضواء وأعطوها حيزا ضخما فى التاريخ الاسلامى لابراز الأوائل رضوان الله عليهم فى صورة شائهة وطمس أمجادهم ٠

ومما لا شك فيه أن الظروف هيأت لهذا النزاع ، وأن من الناس من سعى سعيا لوقوع الطائفية بين المسلمين ، ومن العجب أن التفصيلات الدقيقة التى تذكرها المصادر التاريخية لم يكتب لها النجاح اما لقصور من جانب المحاولين لعلاج ذات البين أو بتدخل ممن رغبوا فى اشاعة نار الفتنة ونجحوا فيها فقد كانت حرب الجمل أشد المعارك ضراوة فى التاريخ الى انها أقل المعارك تأثيرا من الناحية السياسية والنفسية على المجتمع الاسلامى كله ٠ لأنها لم تفرز أحزابا دينية أو متطرفة كما لم تغير من

الوضع القائم قبل نشوب الحرب • كما كان الكثرة من المسلمين المقيمين بين مكة والمدينة والبصرة لم يعلموا بتلك الحرب الضروس الا من النسور والطيور التى نقلت اليهم الأيادى والأقدام المبتورة من كثرة القتلى فى هـذه المعركة •

وفى البداية تحاشى الامام على كرم الله وجهه القتال وكاد يتم الصلح بين الطرفين لولا أن السبئيين سعوا بين قتلة عثمان يطالبونهم بالقصاص فاستغلظ الأمر ، ولقـد ثبت فى كتب التاريخ أن الامام على كرم الله وجهه ذهب الى أبعد من الصلح ونفر نفورا شديدا من قتال المسلمين ، ولمـا لم يجد بدا من القتال اضطر اليه ، فقد طلب كرم الله وجهه من أحد مؤيديه أن يحمل المصحف ويذهب به الى الطرف الآخر فلما وصـل اليهم رسول الامام حاملا المصحف معه عرضه عليهم قائلا «هو بيننا وبينكم من أوله الى آخره ، والله فى دمائنا ودمائكم » ولكنهم رفضوا كل شىء الا القتال •

ولقد فعل الامام على كرم الله وجهه ما يرضى ضميره ويرضى ربه ويحقن به دماء المسلمين كما أن المطالبين بدم عثمان لم يتركوا له فرصة استقرار الأحوال بين يديه فيقتص من قتلة عثمان المجهولين •

ولهذا فان القاضى ابن العربى يضع وزر نشوب الحرب على عاتق قتلة عثمان استنادا على ما روى عن الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية ، والطبرى فى تاريخه من أن الفريقين كانا يرغبان فى الصلح فبعث على كرم الله وجهه ابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنهـما وبعث أصحاب الجمل بمحمد بن طلحة هادفين جميعا الى الصلح • ولكن قتلة عثمان لم يتفق وما بيتوه من فتن لكى يختفوا جميعا وسط هذه المقمعة فاجتمعوا فى السر على انشاب الحرب ، فلما أنشبوها ظن كل فريق من الفريقين أن الآخر غدر به فنشب القتـال بينهما ، فاشتجرت الحرب وكثرت الغوغاء

على البوغاء ، كل ذلك حتى لا يقع البرهان ولا يقف الحال على بيـــان ويخفى قتلة عثمان وأن واحدا فى الجيش يفسد تدبيره فكيف بألف ..!»

ويذهب القاضى الباقلانى الى نفس هذا الرأى .

ودليل ذلك ــ ما ان وقف القتال حتى ندم الذين شاركوا فيه ، فهذا طلحة بن عبيد الله يقول « تالله ما رأيت كاليوم قط شـيخا من قريش أضيع منى ، والله ما وقفت موقفا قط الا عرفت موضع قدمى الا هذا الموقف ! » .

وهذا الزبير بن العوام رضى الله عنه يذكره الامام على كرم الله وجهه أثناء القتال بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينصرف عن المعركة نادما .

أما السيدة عائشة رضى الله عنها فقد عاشت طوال عمرها نادمة على هذا الموقف لاشتراكها فى هذه الحرب ، واعتكفت بعد ذلك فى بيتها لا تشارك فى الحياة السياسية ، قبعت فى بيتها تتعبد وتتهجد تائبة نادمة. ولهذا فانها عنـــدما تقرأ « وقرن فى بيوتكن » كانت تبكى حتى يبــل خمارها ، واذا ذكرها أحد بحرب الجمل بكت حتى يظن أنها لن تكف عن البكاء .

أما الامام على فقد بلغ قمة العدل والتسامح مع الذين قاتلوه ، فقد أمر جنوده أن يكفوا أيديهم وألسنتهم عنهم وطلب منهم أن يصبروا كما طلب منهم فى خطبـــة أخرى الا يقاتلوا حتى يبدؤا ، فاذا هزموهم فلا يجهزوا على جريح ، ولا يسعوا وراء هارب ، أو يمثلوا بقتيل ، وأن يرفق بالنساء ولو سببنهن لأنهن مؤمنات ، وقد ترحم عليهم ، وأمر بدفنهم والصلاة عليهم وقال « اللهم اغفر لنـــا ولهم » .

ومن كياسته وايمانه العميق كرم الله وجهه بموقفه سئل رضى الله

عنه عما اذا كان قتلى الجمل مشركين أو منافقين فقال فى حكمة بالغة « من الشرك فروا ، ان المنافقين لا يذكرون الله الا قليلا ، انما هم اخواننا بغوا علينا ، انما اقتتلنا على البغى ولم نقتتل على التكفير » •

وسأله الحارث بن خوط قائلا : « أظن أن طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل ؟

فقال الامام : يا حارث •• انه ملبوس عليك ، وان الحق والباطل لا يعرفان بالناس ولكن اعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف من أتاه • »

وانتهت حرب الجمل ولم تسفر عن انشقاق •

وجاءت حرب صفين الشهيرة فكادت تفنى المسلمين لولا أن حقن الله دماءهم ••

لقد كان معاوية يطلب بدم عثمان !

طلب بدم المقتول من الخليفة ولم يبايعه ليعينه على القصاص !

قسط منه ذلك الحق الذى يطالب به ، فالحق هنا لولى الأمر الذى بايعته النـــاس •

وبذلك طلب منه أمير المؤمنين عليا فى كتاب له : أن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم تأتى الخطوة التالية وهى محاكمة القوم فيقول له : «ثم حاكم القوم الى أحملك واياهم على كتاب الله» وتضمن كتابه أيضا لمعاوية بعدم اشتراكه فى دم عثمان وبراءته منه قائلا « ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان » •

الا أن هذه الحرب انتهت برفع المصاحف من قبل جيش الشـــام

خدعة منهم لأهل العراق حين رأوا الهزيمة تحيق بهم من كل جانب ، فنتج عن ذلك التحكيم الى كتاب الله .

كما أفرزت تلك الخدعة فرقة الخوارج الذين خرجوا عن جيش الامام على ليناصبوه العداء .

تلك الفئة التى عانى منهـا الامام على الأمرين لأنهم الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحاديث كثيرة بأنهم خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الرمية .

فيذكر اليعقوبى ، أنهم فى موقعة صفين لم يسمعوا نصحه حين أخبرهم الامام كرم الله وجهه بأن رفع المصاحف خدعة ومكيدة وليس رافعوها بأصحاب قرآن . كما ذكرت كل كتب التاريخ بأنهم وقفوا وقفة صلبة مع الامام على كرم الله وجهه ولم يطيعوا له أمرا ، فقد نصحهم بأن رفع المصاحف خدعهم فلم يستجيبوا له ، وطلبوا التحكيم الى كتاب الله قائلين « لا حكم الا لله » .

ودعاهم الى حرب أهل الشام فلم يذعنوا له !

ولم ينته أمرهم عند هذا بل طلبوا من الامام كرم الله وجهه أن يرسل أبا موسى للتحكيم ليخالفوا رغبته فى ارسال عبد الله بن عباس اليهم لأنه كفء لعمرو بن العاص اذا ما احتكما لكتاب الله .

وخدع أبو موسى من عمرو بن العاص !

وتلك بداية الخدعة الكبرى نقصها كما جاءت فى كتب التاريخ لتنظر ثاقب رأى الامام كرم الله وجهه وفراسته وعداله فى القضية .

ففى دومة الجندل التى تم فيها التحكيم التقى عمرو بن العاص مع أبى موسى الأشـعرى ذلك الصحابى الجليل الذى لا يعرف للحيـل

والألاعيب وجوها فكان عمرو بن العاص يعطى أبا موسى الأشعرى صدارة المجلس قبل التحكيم ويقدمه فى الكلام قائلا له : انك صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلى ، وأنت أكبر منى سنا ، فتكلم أنت ، ثم أتكلم أنا . جعلها عمرو سنة لهما قبل أن يحتكما كما أعطاه التقدم فى الصلاة وفى الطعام فلا يأكل قبله ، واذا خاطبه فانما يخاطبه بأجل الأسماء قائلا له : « يا صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما زال داهية قريش بالرجل الصالح التقى حتى اطمأن أبو موسى اليه وظن انه لن يخدعه ، فلما حان الوقت الذى قدره عمرو قال لأبى موسى :

اخبرنى ما رأيك يا أبا موسى ؟ قال أرى أن أخلع هذين الرجلين .

ونجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون من شاءوا .

فقال عمرو : الرأى والله ما رأيت يا صاحب رسول الله .

ثم أقبلا الى الناس وهم مجتمعون فبدأ أبو موسى الكلام ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة . فقال عمرو : صدق أبو موسى . ثم قال له : تقدم يا صاحب رسول الله فتكلم . فقام ليتكلم فدعاه عبد الله ابن عباس فقال له : ويحك يا أبا موسى ، انى لأظنه خدعك ، ان كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك ليتكلم به ثم تكلم أنت بعده فلا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فاذا قمت به فى الناس خالفك ، وقد أدركت أبا موسى عقلة الصالحين .

فقال : ايها عنك يا ابن عباس ، لقد اتفقنا ، ثم تقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها وألم لشعثها من أن لا تتباين أمورها ، وقد جمع رأيى ورأى صاحبى على خلع على ومعاوية حتى تستقبل الأمة هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين يولون أمورهم من أحبوه . وانى

قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أموركم وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلا .

ثم تنحى فقام عمرو بن العاص فى مقام أبى موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هذا ، أبا موسى ـ قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه عليا ولكنى أثبت صاحبى معاوية فى الخلافة ، فانه ولى عثمان والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه فقال له أبو موسى ـ مالك ـ لا وفقك الله ، لقد غدرت وفجرت ، انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

فقال له عمرو : انما مثلك كمثل الحمار يحمل اسفارا .

فقام شريح بن هانى فحمل على عمرو فقنعه بالسوط ، وحمل ابن عمرو على شريح فقنعه بالسوط . فكان شريح بعد ذلك يقول : ما ندمت على شىء ندامتى على أن لا أكون ضربت عمرا بالسيف بدل السوط ، جالبا على قضاء الله ما كان جالبا ، ثم التمس أصحاب الامام على أبا موسى فركب ناقته ولحق بمكة .

وقد كان ابن عباس يقول : قبح الله أبا موسى ، لقد حذرته وهديته الى الرأى فما عقل !

وكان أبو موسى يقول : لقد حذرنى ابن عباس غدرة الفاسق ولكنى اطمئننت اليه وظننت أنه لا يؤثر شيئا على النصح للأمة .

ثم رجع عمرو بن العاص الى منزلة ليزف البشرى لمعاوية فكتب اليه :

أتتك الخلافة مزفوفة هنيئا مريئا تقر العيونا
تزف اليك زفاف العروس بأهون من طعنك الدارعينا
وما الأشعرى بصلد الزناد ولا خامل الذكر فى الأشعرينا

ولكن أتيحت له حيـــة ... يظل الشجاع لها مستكينا
فقالوا وقلت وكنت امرءا ... أجهجه بالخصم حتى يلينا
فخذها ابن هند على بعدها ... فقد دافع الله ما يحظرونا
وقد صرف الله عن شامكم ... عدوا مبينا وحربا زبونا

يقول الرواة ان سعد بن قيس الهمدانى قام فى الناس بعد هـذه الواقعة فقال : والله لو اجتمعنا على الهـدى زدتمانا على ما نحن الآن عليـه ، وما ضلالكما بلازم لنـا وما رجعتما الا بما بدأتما به وانا اليوم لعلى ما كنـا عليه بالامس • ثم قام كردوس بن هانىء مغضبا فقال :

رضينا بحكم الله لا حكم غيره ... وبالله ربا والنبى وبالذكر
وبالأصلع الهادى على امامنا ... رضينا بهذا الشيخ فى العسر واليسر
رضينا به حيا وميتا وانه ... امام هدى فى الحكم والنهى والأمر
فمن قال «لا» قلنا «بلى» ان أمره ... لأفضل ما نعطاه فى ليلة القـدر
وما لابن هنـد بيعة فى رقابنـا ... وما بيننا غير المثقفة السمر
وضرب يزيل الهـام عن مستقره ... وهيهات هيهات الرضا آخر الدهر
أبت لى أشياخ الارامل سبة ... أسب بها حتى أغيب فى القبر

وبعد التحكيم الأسود لم يذعن الخوارج لرأى الامام على كرم الله وجهه ، بل ازدادوا حدة وكفروا أهـل التحكيم لأنهم حسب اعتقادهم جعلوا الحكم لأبى موسى الأشعرى ، أى أنه لا يحكم الا الله فى هذه القضية ، كما أنهم يكفرون فى مذهبهم أصحاب المعاصى ومن اختلف معهم فى مذهبهم •

أمد لهم الامام على كرم الله وجهه حبل الصبر فذهب اليهم قبـل التحكام الذى تمسكوا به اذعانا لخدعة المصاحف متمنيا أن يعودوا اليه ليخوض بهم القتال ضد البغاة فقال لهم :

« ألم تقولوا عنـد رفعهم المصـاحف ـ حيلة وغيـلة ـ ومكرا وخديعة ـ اخواننا وأهل دعوتنا ، استقالونا واستراحوا الى كتـاب الله سبحانه ، فالرأى القبـول منهم ، والتنفيس عنهم . فقلت لكم : هـذا أمر ظاهره ايمان وباطنه عدوان وأوله رحمة وآخره ندامة ، فأقيموا على شـأنكم ، والزموا طريقتكم ، وعضـوا على الجهـاد بنواجـذكم ، ولا تلتفتوا الى ناعق نعق ان أجيب أضل ، وان ترك ذل ؟

ولم ينتهوا الى نصحه كرم الله وجهـه بل تمسـكوا بالتحكيم وبشروط مقيدة أن لا يحكم فيهم مضريان وذلك حين أراد الامام كرم الله وجهه أن يرسل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ليكون كفأ لعمرو ابن العاص حيث قال لهم :

« ان معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا أوثق برأيه من عمرو ابن العاص وانه لا يصح للقرشى الا قرشى مثله ، فعليكم أيها النـاس بعبـد الله بن عباس فارموه به ، فان عمرا لا يعقد عقـدة الا حلهـا عبد الله ، ولا يحل عقدة الا عقدها ، ولا يبرم أمرا الا نقضه ، ولا ينقض أمرا الا أبرمه » .

ولكن الأشعث بن قيس أبى أن يكون من قريش أحد فى التحكيم قائلا « والله لأن يحكم الحكمان ببعض ما نكره ـ وأحدهما من أهـل اليمن ـ أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب فى حكمهما وهما مضريان » .

وبعد أن اتضحت لهم تلك الخديعة انشـقوا على الامام كرم الله وجهه ، يقول ابن عبد البر فى كتـابه « جامع بيان العلم وفضله » عن أبى زميل قال : ان عبد الله بن عباس لمـا رأى الناس قد خرجوا من جيش الامام على قال له ذات يوم وهم فى حروراء : يا أمير المؤمنين ، أبرد بالصـلاة فلا تفتنى حتى آتى القوم . قال : فدخـل عليهم وهم قائلون ـ وقت الظهيرة ـ فاذا هم مسهمة وجوههم من السهر ، وقـد

أثر السجود فى جباههم ، كأن أيديهم ثفن الابل ، عليهم قمص مرحضة، فقالوا : ماذا جاء بك يا ابن عباس ؟ وما هذه الحلة عليك ؟ .

قال : وما تعيبون منى ، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من ثياب اليمنية . قال : ثم قرأ هذه الآية ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ .

فقالوا : ما جاء بك ؟

فقال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله ، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم .

قال بعضهم : لا تخاصموا قريشا فان الله يقول ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ .

فقال بعضهم : بلى فلنكلمه .

قال : فكلمنى منهم رجلان أو ثلاثة : قال : قلت : ماذا نقمتم عليه ؟

قالوا : ثلاثا . قلت : ما هن ؟ قالوا : حكم الرجال فى أمر الله وقال الله ﴿ ان الحكم الا لله ﴾ .

قلت : هذه واحدة ، وماذا أيضا ؟

قالوا : فانه قاتل ولم يسب ولم يغنم ، فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتلهم ، ولئن كانوا كافرين لقد حل قتلهم وسبيهم .

قال : قلت : وماذا أيضا ؟

قالوا : ومحا نفسه من أمرة المؤمنين ، فان لم يكن أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين ؟

قال : قلت : أرأيتكم ان أتيتكم من كتاب الله وسـنة رسـوله ما ينقض قولكم هذا ، أترجعون ؟

قالوا : وما لنا لا نرجع ؟

قال : قلت : أما حكم الرجال فى أمر الله فان الله قال فى كتـابه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ (المائدة : ٩٥).

وقال فى المرأة وزوجها : ﴿ وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ﴾ (النساء : ٣٥) .

فصير الله ذلك الى حكم الرجال ، ناشدتكم بالله ، أتعلمون حكم الرجال فى دماء المسلمين واصلاح ذات بينهم أفضـل أوفى حكم أرنب ثمنه ربع درهم وفى بضع امرأة ؟

قالوا : بلى هـذا أفضل .

قال : أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم .

قال : فأما قولكم قـاتل ولم يسب ولم يغنم . أتسـبون أمكم عائشـة ؟ فان قلتم نسبها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم ، وان قلتم ليست بأمنا فقـد كفرتم فأنتم مترددون بين ضلالتين .

أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم .

قال : وأمـا قولكم محا نفسه من امـرة المؤمنين فأنا آتيكم بما ترضون به أن نبى الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب يا على ، هـذا ما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو سفيان وسهيل ابن عمرو : ما نعلم انك رسـول الله ، ولو نعلم أنك رسـول الله

ما قاتلناك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم انك تعلم انى رسولك ، امح يا على واكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أبا سفيان وسهيل بن عمرو .

قال : فرجع منهم ألفان ، وبقى بقيتهم فى غيهم مهطعين .

لم يكن ليغيب عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه صفتهم ولا شأنهم ولكن مد لهم حبل الصبر طويلا ليحق عليهم القتل تقتيلا ، لقد علم الامام شأنهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة أحاديث نبوية ، كما فسر المفسرون للقرآن الكريم وعلى رأسهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس صفتهم فى بعض الآيات الشريفة ، فعن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ .

يقول ابن عباس : يلبسكم شيعا هو الاهواء المختلفة ، ويكون على هذا قوله ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ تكفير البعض حتى يتقاتلوا كما جرى للخوارج حين خرجوا على أهل الجماعة .

ولعمرى ما زال منهم بقية فى هذا الزمان يكفرون المسلم ويحقرون أعماله ليقتتل المسلمون ، ولن تمحى ذريتهم من الوجود ليصدق فينا قول الله عز وجل ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ .

وعن الحسن قال : خرج علينا عثمان بن عفان يوما يخطبنا فقطعوا عليه كلامه ، فتراموا بالبطحاء حتى جعلت ما أبصر أديم السماء ، قال : وسمعنا صوتا من حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فقيل هذا صوت أم المؤمنين قال : فسمعتها وهى تقول « ألا ان نبيكم قد برأ ممن فرق دينه واحتزب ، وقالت : ﴿ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ﴾ (الأنعام : ١٥٩) .

وعن أبى أمامة : أن هذه الآية نزلت فى الخوارج

ونزلت آيات كثيرة من هذا القبيل فسر المفسرون انها فى الخوارج.

أما الأحاديث النبوية فهناك أحاديث تنص صراحة على هويتهم منها ما رواه الامام مسلم فى صحيحه بسنده عن عبد الرحمن بن أبى نعم قال : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول : بعث على بن أبى طالب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهبة فى أديم مقروفا ــ جلد مدبوغ ــ لم تحصل من ترابها . قال : فقسمها بين أربعة نفر ــ بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع اما علقمة ابن علاثة واما عامر بن الطفيل ، فقال رجل من أصحابه : كنا أحق بهذا من هؤلاء . قال : فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تأمنوني وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء . قال : فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، مشمر الأزار ، فقال : يا رسول الله ، اتق الله . فقال : « ويلك .. أو لست أحق أهل الأرض أن يتقى الله » .

قال : ثم ولى الرجل ، فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه ؟ فقال : لا « لعله أن يكون يصلى » فقال خالد : وكم من يصلى يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وانى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم . قال : ثم نظر اليه وهو مقف فقال : انه يخرج من ضيئضىء ــ أى من صلب ــ هذا قوم يقرءون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . قال : أظنه قال : لو أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود » .

وهناك حديث ذكره الامام على كرم الله وجهه أثناء القتال فى النهروان حيث قال لأصحابه : أيها الناس ، انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يخرج قوم من أمتى يقرأون القرآن ، ليس

قراءتكم الى قراءتهم بشيء ، ولا صلاتكم الى صلاتهم بشيء ، ولا صيامكم الى صيامهم بشيء ، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، لاتجاوز صلاتهم تراقيهم ــ أى لا تخرج من عنقهم ــ يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ولو يعلم الجيش الذى يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم لاتكلوا عن العمل ، وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدى عليه شعرات بيض .

ثم قال الامام « والله انى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم ، فانهم قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا على سرح الناس ، فسيروا على اسم الله » .

وحاربهم الامام على كرم الله وجهه فى النهروان وانتصر عليهم انتصارا ساحقا . ولقد أصاب الامام على فى قتلهم كما أصاب فى كل مواقعه .

لقد قبل التحكيم لأن التحكيم لكتاب الله بواسطة رجال عدول هو من صفات المؤمن الواثق من موقفه وأنه مع الحق . فلما رأى أنهم اختاروا أبا موسى الأشعرى حكما لهم وعنهم حذر أبا موسى من خديعة عمرو كما حذره ابن عباس الذى ود الامام أن يكون مكانه فى التحكيم .

فأما حربهم وقتالهم وتشريدهم ، فقد كانوا هم البادئون بالقتال وسب الصالحين وسفك دماء المسلمين فحق عليهم القتل والتشريد .

يقول ابن حزم فى كتابه « بحر الكلام فى علم التوحيد » يقول فى رده على أفكار الخوارج وأفكارهم للتحكيم ان عليا لم يحكم قط رجلا فى دين الله وحاشاه من ذلك وانما هو قد حكم كلام الله عز وجل بعد أن اتفق الفريقان على الدعوة الى حكم القرآن الكريم وقد

قال تعـالى « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرســول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ولمـا كان يستحيل أن يتناظر الفريقـان بكامل أفرادهما فقـد تم اختيـار الحكمين كل منهما عن الفريق الذى يمثله مدليـا بحجج المعســكر الذى ينوب عنـه ــ أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق ، وعمرو بن العاص عن أهل الشـام فلم يخطىء الامام على كرم الله وجهه اذن فى قبوله التحكيم للرجوع الى ما أوجبه القرآن ».

فانكار الخوارج التحكيم وتكفيرهم على نتيجة لهذا يرجع الى أنهم كانوا أعرابا قرءوا القرآن حقـا ولكنهم لم يتفقهوا فيـه ولا فى السنن الثابتة عن الرسـول صلوات الله وسـلامه عليه ولم يكن منهم أحد من الفقهاء المعروفين .

لقد حاول الامام على كرم الله وجهه جاهـدا اصـلاحهم وردهم عن غيهم بجهلهم وضلالهم فهاهو يقول لهم « ولقد بصرتم ان أبصرتم ، واسمعتم ان سمعتم ، وزجرتم بما فيـه مزدجر ، وما يبلغ عن الله بعد رسـل السـماء الا البشر » !

ومع ظهور الخوارج الذين قتلهم الامام على كرم الله وجهه يتضح لنـا أنه كان يمتلك ناصية الحق ويرى بقلب ربانى شـفاف أو كأنما قد أزيح من أمام عينيـه سـتارة الغيب فيبصر حيث لا يبصرون ويعقـل ما لا يعقلون فقد تشـعبت الفرق الاسـلامية التى نشـأت بظهـور الخوارج وتعددت مذاهبهم وكلهم يكفر المسـلم والعاصى ويثبت الفساد فى خلق الله وفى العباد ويسب السلف والخلف ويتبرأ من عثمان وعلى وسـائر المؤمنين . فمنها على سبيل المثال لا الحصر : المحكمـة .. والأزارقة ، وأصـحاب شهب الخارجى ، الذى خـرج على الحجاج بن يوسف الذى كفر السـلف والخلف وتبرأ من على وعثمان . أما الفرقة الرابعة فهى « النجدات » والخامسة « الأباضية » والسادسة « الصفرية » والسابعة « الحرورية » والثامنة « الحمزية » والتاسـعة « الصـلتية » وهم أصحاب الصلت بن عثمان .

ولقد مزقهم الامام على كرم الله وجهه شر تمزيق فتفرقوا بعد الحرب فى البلاد ولكنهم سرعان ما يتجمعون ويهاجمون الحكام فى كل حين وزمان فيعملون فيهم السيف .

لقد حاربهم الامام على فى عدة مواقع كان أولها النهروان كانوا تحت قيادة عبد الله بن وهب الراسبى وهزموا هزيمة نكراء .

وبعد شهرين تجددت ثورتهم فقاتلوا الامام فى « الدسكرة » وكان قائدهم أشرس بن عوف الشيبانى . فهزموا هزيمة ساحقة .

ثم قاتلوا جيش الامام على مرة ثالثة تحت قيادة هلال بن علقة وأخيه خالد وكان ذلك فى « ماسبذان » وهزموا أيضا هناك .

وبعد هزيمة ماسبذان قادهم الأشهب بن بشر البجلى فى خروج آخر فى نفس العام الثامن والثلاثين هجرية فحاربوا « جرجرايا » على نهر دجلة فهزموا أيضا ، وفى رمضان من نفس العام زحفوا تحت قيادة « أبو مريم » من بنى سعد تميم الى أبواب الكوفة ، فحاربوا جيش الامام على كرم الله وجهه فهزموا هناك هزيمة شنعاء .

هؤلاء هم الخوارج شر خلق الله الذين حاربهم الامام فى عدة مواقع فانتصر بالحق وللحق عليهم ، واستأصل جذورهم الا بقية ظلت تناوش بنى أمية وتناوش المسلمين .

ومن هذا يتضح للعيان موقف الامام الصائب فى قتالهم وصبره عليهم ذلك الصبر الطويل ، فلم يفلح معهم النصح وما يضر المؤمنين فساد الهالكين !.

* * *

اتفق الناس جميعا على أن قصبة السبق فى هذا المضمار للامام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، بل هو الفرد المتفرد فى هـذا الفن من فنـون علم القرآن والحديث والعرف المـأثور . لأنه كرم الله وجهـه كان فى هـذه المسـائل الفقهية يتجاوز التفسير الى التشريع ، كلمـا وجب الاجتهاد بالرأى الصـائب والقياس الصحيح ، فان دل هـذا على شىء فانما يدل على تفرده بأدوات الفقـه كعلمه بنصوصه وأحكامه كما كان بليغا فى علم الحسـاب وتلك أدوات لا غنى عنها فى معضـلات المواريث شـأنها شـأن نصوص القرآن وعلم الحديث ، فكان كرم الله وجهه ضليعا فطنـا فى حل الألغاز التى تقف عندها العقول .

وها هو كرم الله وجهه يفسر لنا اختلاف العلماء فى الفتيا فيقول :

« ترد على أحـدهم القضية فى حكم من الأحكام ، فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد تلك القضـية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضـاة بذلك عنـد الامام الذى اسـتقضاهم فيصوب آراءهم جميعا والههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد !

أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه ! أم نهاهم عنه فعصوه ، أم أنزل الله سـبحانه وتعالى دينـا ناقصـا فاستعان بهم على اتمامه ، أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى ، أم أنزل الله سبحانه دينـا تاما فقصر الرسـول صلى الله عليه وسلم وعلى آله عن تبليغـه وأدائه ، والله سـبحانه يقول : ﴿ ما فرطنـا فى الكتـاب من شىء ﴾ وقال : ﴿ وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ﴾ وذكر أن الكتـاب يصدق بعضه بعضـا ، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا » وأن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ولا تكشف الظلمات الا به .

كان الامام كرم الله وجهه سريع البديهة فى القضاء والفتيا لأنه يستلهم فقهه وقضاءه وفتواه من تراثه الايمانى العميق ومن مخزون علمه ومن باطن القرآن وظاهره ، ومحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه ، ومن سنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، يعض عليها بالنواجذ ومن العرف المأثور .

فلنتأمل فطنته ويقظته وبديهته الحاضرة اذ يقال ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد ..

فقال لها الامام : لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثنى عشر أخا وأنت ؟ فكان كما قال .

وتلك بداهة تأخذ من فطاحل العلماء وقتا طويلا ان أصابوا فيها الصواب !

وسئل رضى الله عنه يوما أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين : فأجاب من فوره ، صار ثمنها تسعا . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية .

وكانت كل فتاواه لا جدال فيها ولا مراجعة من قبل الصحابة ، فقد كانوا على قناعة تامة بسعة أفقه فى عالم الفقه وعالم القضاء !.

* * *

« ان الله سيهدى قلبك ويثبت لسـانك » .

صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

دعوة مسـتجابة من الرسول الأعظم للامام الأعظم !

« علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل » .

وكأنما كان عليـا هو المقصـود الأهم !

فلزوم القضـاء هو قبل كل شيء الهداية وفصاحة القلب واللسان ، والامام هاشمى سـليل الهاشميين ، وهم أفصح العرب لسـانا وأصدقهم جنانا . كمـا أنه أول من كتب الحروف وأول من أسـلم من المسلمين وثانى من صلى خلف النبى وزوجه خديجة . فان ذلك مما لا شـك فيه معوانا له على اصـابة الهدف ومعرفة الحق وتنقيته من الأباطيل . وهنـا أدرك عمر رضى الله عنـه وهو المشـهور بحبه للعدل ، أدرك منـذ البـداية أن عليـا كرم الله وجهـه أجـدر من يمتلك زمام القضـاء وأنه خـير معـين لـه لأنه يريـد الاصـلاح والعـدل وهو الذى سـمع رسـول الله يقول « أقضاكم على » فكان يأخـذ برأيه وقضائه ويعمل به احقاقا للحق واقام العـدل وزهـق للباطل ، ولم يكن عمر رضى الله عنه يأخذ برأيه وهو أمير المؤمنين لمجرد النصيحة والاعجاب .

كان أمير المؤمنين عمر يأخـذ برأيه وقضـائه ومشورته فلا يعقـد رأيا ولا مشـورة الا به كرم الله وجهـه ، وكان اذا صمت الامام فى مجلس الشـورى ولم يدلى برأيه فى قضية من قضايا المسلمين ، يصيح بـه عمر ٠٠ ايه يا ابن عم رسـول الله ٠٠ تكلم ٠٠ وحين يتكلم يأخذ برأيه عن قناعة أنه مفتاح العلم وسر من أسرار النبوة .

فمن أقضيته كرم الله وجهـــه أنه أشار على أمير المؤمنين عمر بأن لا يخرج على رأس الجيش في فتح فارس ، وكان أمير المؤمنين يود أن يخرج على رأس الجيش ، فأخــذ برأى الامام ايثارا له على ما خالفــه من الآراء لأنه لو قدر الله وقتــل أمير المؤمنين وســط الحرب لانهزم الجيش هزيمة نكراء ولا تقوم له قائمــة في الأمــد القريب ، لأن موته قــد أثر في نفوس الشعب والجيش على حد سواء وهيهات أن يلم شمل هؤلاء وهؤلاء .

أما اذا استشهد القــائد فأيسر شيء عنــد أمير المؤمنين أن يعين بدلا منــه قائدا آخر دون المســاس بروح الجيش والأمة على السواء . ولنتأمل رد الامام على على عمر رضى الله عنهما : قال له الامام على : ان هذا الأمر لم يكن قصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذى أظهره وجنــده الذى أعــده وأمده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعد مع الله ، والله منجز وعده وناصر جنده ، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فاذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا — والعرب اليوم — وان كانوا قليلا فهم كثيرون بالاســلام عزيزون بالاجتمــاع ، فكن قطبــا واســتدر الرحا بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب فانك ان شخصت من هذه الأرض انتفضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم اليــك ممن بين يديك ، ان الأعاجم ان ينظروا اليــك غدا يقولوا : هــذا أصــل العرب فاذا قطعتمــوه استرحتم فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك ، فأما ما ذكرت من ســير القوم الى القتــال فان الله ســبحانه هو أكره لمســيرهم منك وهو أقــدر على تغيير ماكره ، وأما ما ذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما نص بالكثرة وانما كنا نقاتل بالنصرة والمعونة .

رأى صــائب لا يحتاج الى تفســير أو تأويل !

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما رواه الامام الجليل شمس الدين ابن القيم فى الحلف بالطلاق متسائلا : هل الحلف بالطلاق يمين أو لا ؟ وقد أجاب على تساؤله فى كتاب « اعلام الموقعين » فقال :

ان الحلف بالطلاق لا يلزم ولا يقع على الحانث به طلاق ، ولا يلزمه كفارة ولا غيرها ، وهذا مذهب خلق من السلف والخلف ، صح ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقد قال بعض فقهاء المالكية وأهل الظاهر ، ولا يعرف لعلى فى ذلك مخالف من الصحابة على ما قرر ذلك أبو القاسم التيمى فى شرح أحكام عبد الحق وقد قاله قبله أبو محمد بن حزم ، وصح عن طاووس أجل أصحاب ابن عباس وأفقههم على الاطلاق .

قال عبد الرزاق فى مصنفه : أنبأنا ابن جريح عن ابن طاووس عن أبيه أنه كان يقول : الحلف بالطلاق ليس شيئا . قلت له : أكان يراه يمينا ؟ قال : لا أدرى ، وهذا أصح اسناد عمن هو من أجل التابعين وأفقههم وقد وافقه أكثر من أربعمائة عالم من الذين بنوا فقههم على نصوص الكتاب دون القياس ومن آخرهم أبو محمد بن حزم حيث قال فى كتابه « المحلى » اليمين بالطلاق لا يلزم سواء برا أو حنثا ، لا يقع به طلاق ، ولا طلاق الا كما أمر الله تعالى ، ولا يمين الا كما شرع الله تعالى على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قرر ذلك وساق اختلاف الناس فى هذا ثم قال : فهؤلاء على بن أبى طالب كرم الله وجهه وشريح وطاووس لا يقضون بالطلاق على من حلف به فحنث ، ولا يعرف فى ذلك لعلى كرم الله وجهه مخالف من الصحابة رضى الله عنهم . ويقول شيخ الاسلام ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين عن رب العالمين » والأثر المروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أن رجلا تزوج امرأة وأراد سفرا فأخذه أهل امرأته ، فجعلها الرجل طالقا ان لم يبعث نفقتها الى شهر ، فجاء الأجل ولم يبعث اليها

شيء ، فلما قدم الرجل من سفره خاصموه الى على كرم الله وجهه فقال : انكم اضطهدتموه حتى جعلها طالقا ثم رد عليه زوجته

فترك الامام كرم الله وجهه الأمر في ذلك بمنزلة المضطهد حيث لم يرد طلاق امرأته وانما أراد التخلص من سفره بالحلف ، والحالف المضطهد كل منهما لم يرد طلاق امرأته ، فالمضطهد محمول على الطلاق ، وقد تكلم به ليتخلص من ضرر الاكراه ، والحالف حلف به ليتوصل الى غرضه من الحض أو المنع أو التصديق أو التكذيب ٠

ومن أقضيته كرم الله وجه : قضية « الزبية » ، وهى حفرة فى مكان مرتفع لايرقى اليها السيل ، تحفر وتغطى بالقش ونحوه تعمية على الأسد حتى يسقط فيها : وهى أن جماعة من أهل اليمن حفروا هذه الحفرة ليصطادوا الأسد ثم غطوها بالقش وغير ذلك ، فجاء الأسد فسقط فيها ؛ فاجتمع الناس حول الحفرة ينظرون الى الاسد وهو بداخل الحفرة فوقع أحد الواقفين فى الزبية فجذب ثانيا معه وجذب الثانى ثالثا وجذب الثالث رابعا ٠ فقتلهم الأسد فرفعوا الأمر الى الامام على قاضى اليمن ، فقضى للأول بربع الدية ، وللثانى بثلث الدية ، وللثالث نصفها ، وللرابع بالدية كاملة ثم قال : « اجعلوا الدية على من حفر رأس البئر »٠

فلما رفع ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الأمر كما قضى على » ٠

ومن أقضيته كرم الله وجهه : قضاؤه فى بنات يزدجرد ملك فارس ابان الفتوح الاسلامية ، وذلك ما يرويه العلامة الزمخشرى فى كتابه : « ربيع الأبرار » فيقول : لما جيىء الى المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر بن الخطاب كان فى هذا السبى ثلاث بنات ليزدجرد ٠ فأمر عمر رضى الله عنه ببيع البنات الثلاث فقال الامام على كرم الله وجهه : ان بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ٠ فسأله أمير المؤمنين : كيف الطريق الى العمل معهن يا أبا الحسن ؟

فقال كرم الله وجهه : يقومن يا أمير المؤمنين ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن • فأخذ عمر برأى الامام فأخذهن على رضى الله عنه ، ثم دفع بواحدة لعبد الله بن عمر ، ودفع الثانية الى محمد بن أبى بكر ، ودفع بالثالثة الى الحسين ، على أن يكون البنات الثلاث زوجات لأكفائهن من العرب • فولدت زوجة الحسين عليـا زين العابدين •

وذلك قضـاء من يعرف فضل النـاس فينزل كل على منزلتـه فقد عامل كرم الله وجهه أولاد الملوك بأشراف العرب وذلك من حسـن التـدبير •

ومن أقضيته كرم الله وجهـه : ما يأثره الثقـاة عن الامام جعفر الصادق رضى الله عنه قال : بينا أمير المؤمنين على فى ملأ من أصـحابه اذ جاءه رجل فقال : انى وقعت على غلام فجئت اليك أسألك أن تطهرنى يا أمير المؤمنين ؟

ولم تكن هذه الكلمات تقع من سمع أمير المؤمنين حتى تغير لونه تغيرا يوحى لمن يراه أنه « فضو » ــ مجهد ــ هم مقعد مقيم ، ذلك أن العرب لم تكن تعرف هذا اللون الفاحش من الشذوذ فى ارواء الشهوات الحيوانية ، حتى أنهم لم يضعوا له كلمة تعبر عنه فى لغتهم العربية كمـا وضعوا للمفاحشة بين الرجل والمرأة كلمة « الزنـا » وللمفاحشة بين المرأة والمرأة كلمة « السحاق » فاذا أرادوا التعبير بين الذكور فى تلك المفاحشة استخدموا كلمة « اللواط » نسبة الى قوم لوط • الذين ابتكروا لعنهم الله هذه الفاحشـة •

فلما هدأت العاصفة فى صدر الامام كرم الله وجهه ، توجـه بالحديث الى ذلك الذى جاء اليه راجيا أن يطهره فقال له : يا هذا •• عـد الى منزلك فلعل سـوء فراجك هاج بك فأوقعك فى هذا البلاء المبين • ولم يسع الرجل الا أن يصدع بأمر أمير المؤمنين فرجع الى منزله كما أمره ، ولكنه ما لبث أن عاد اليه يطلب اليه أن يطهره • فقال له كرم الله وجهه :

يا هذا .. ان تطهرك مما اقترفته يقتضى أحــد أمور ثلاثة : أن يضرب عنقك بالسيف ضربة بالغة ما بلغت أو أن تقذف من شاهق جبل مشدود اليدين والرجلين . أو أن تحرق بالنار . فاختر أيهن شئت . ولم يشــأ الرجل أن يختار حتى أقبل على أمير المؤمنين يسأله : أى الثلاثة أبلغ أذى وأشد ايلاما يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه كرم الله وجهه : الحرق بالنار هو الأبلغ الأشد . فقال الرجل : فانى قد اخترت هذا على ما سواه فطهرنى بــه رضى الله عنك . فأجابه أمير المؤمنين : خذ لذلك أهبتك واستعد . ولم تكن أهبة الرجل غير الاستعداد والفزع للصلاة فقام فصلى ركعتين ثم جلس فى تشهده يدعو الله تعالى ويقول « اللهم انى قد أتيت من الذنب ما قد علمت ، وقد جئت لابن عم نبيك أسأله أن يطهرنى فخيرنى بين ثلاث شدائد فاخترت أشدها الاحراق بالنار ، اللهم انى أسألك أن تجعل ذلك كفارة لذنبى وألا تحرقنى بنار الآخرة .

ثم قام يبكى حتى جلس فى الحفرة التى حفروها لــه ، وهو يرى النــار تتأجج ولم يتمالك أمير المؤمنين أن بكى وبكى معه أصحابه ثم قال للرجل : يا هذا انك أبكيت ملائكة الله فى سمائه وأرضه ، وانى أرى بذلك لك توبة ، فقم واياك أن تعــاود شــيئا مما مثلت ، والله غفور رحيم » .

ذلك عفو كبير ممن يملك المقدرة عليه ، فقد رأى الامام كرم الله وجهه أن المذنب تاب توبة خالصة لله ، بل ان حاله كان أشبه بحال أهل النــار فى الآخرة ، فعفا .. وهو بهذا العفو الجميل قد مضى على صراط النبى صلى الله عليه وسلم المستقيم فقد كان المصطفى يحب العفو والله كريم يحب العفو .. يقول الله سبحانه : ﴿ والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ (سورة الفرقان : ٦٨ ــ ٧٠) .

وليس هذا الحكم مطلقا للامام على انما هو عفو مقابل ذنب ، ولقد أفتى الامام على كرم الله وجهه بهذه الجريرة فى عهد الصديق أبى بكر حين حرق « الفجاءة بن عبد ياليل حين عمل عمل قوم لوط ، فانه لما كتب اليه خالد بن الوليد فى ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم واستشارهم فى هذه النازلة ، فرأى الامام على أن يحرق بالنار قائلا : ان هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم الا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم . واخذ أبو بكر رضى الله عنه برأيه فكتب الى خالد بن الوليد أن يحرق ذلك الفاحش بالنار فأحرقه .

ثم مضى الاحراق بالنار قانونا رادعا فى الأمة الاسلامية بعد ذلك عمل به عبد الله بن الزبير فى زمانه ، وهشام بن عبد الملك فى الشام ، ثم عمل به خالد القسرى فى العراق .

أما العفو فهو سلطة الخليفة ان شاء عفا وان شاء عذب به ، فلا لوم عليه وهو سيد الفقهاء الملتقط لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد رأى رسول الله وهو المبعوث رحمة للعالمين أن الذى يفر من اقامة الحد ينبغى لأهل الايمان والرحمة أن يتركوه كما جاء فى قصة ماعز الأسلمى الذى جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معترفا بأنه قد فاحش فاحشة تستحق الرجم بالحجارة حتى الموت ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، ثم جاءه ماعز مرة أخرى من شقه الآخر مصرا على اعترافه فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءه ماعز مرة أخرى معترفا أيضا بما كان قد اعترف به أولا ، فيكون قد اعترف أربع مرات كشهادة أربعة من الشهود توافرت فيهم العدالة التى تقتضى أن يرجم ماعز ، ولم يجد رسول الله مندوحة عن اقامة الحد ، وبدأ القوم يرجمونه بالحجارة فلم يطق ماعز صبرا فهرب من سطوتها ، غير أنه لسوء حظه لقيه رجل معه عظمة جمل شديدة فضرب بها ماعزا فقتله ، فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال « هلا تركتموه ؟ » مشيرا بهذه الكلمة بسقوط الحد بالفرار . فقد كان رسول الله يأثر الستر على

الفضيحة ، والعفو عن الشدة وهو الذى قال « من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يرويه العلامة « التستري » من أن أمير المؤمنين عمر جيء اليه بخمسة نفر أخذوا فى قضيــة زنا ، فأمر عمر رضى الله عنه أن يقام على كل واحد منهم الحد ، فجاء الامام على كرم الله وجهه فقال : ليس هذا حكمهم يا أمير المؤمنين . فقال عمر : أقم أنت عليهم الحد يا أبا الحسن . فقام فقدم واحدا منهم فضرب عنقه ، ثم قدم الثانى فرجمه ، ثم قدم الثالث فضربه الحد ، ثم قدم الرابع فضربه نصف الحــد ، ثم قدم الخامس فعزره . فتحير أمير المؤمنين عمر وتحير الناس معه فقال له : يا أبا الحسن خمسة نفر فى قضية واحدة أقمت عليهم خمسة حدود وليس منها شيء يشبه الآخر ؟!

فقال الامام كرم الله وجهه : أما الأول فكان ذميا خرج عن ذمته فلم يكن له حكم الا السيف ، وأما الثانى فرجل محصن فكان حده الرجم ، وأما الثالث فغير محصن فحده الجلد ، وأما الرابع فعبــد ضربناه نصف الحد ، وأما الخامس فمجنون مغلوب على عقله فعزرناه .

والتعزير هنا هو ضرب الجانى دون الحد لردعه ومنعه من المعاودة!

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يرويه الثقات عن أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه جيء اليه بامرأة حامل ليقيم عليها الحد ، وقد اتهمت عنده بالفجور ، فأمر بها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن ترجم ، ولكن ساقت رحمة الله اليها الامام على كرم الله وجهه فردها عن الحفرة ثم قال لأمير المؤمنين عمر : هل أمرت بها أن ترجم ؟ قال نعم ، اعترفت عنــدى بالفجور . فقال كرم الله وجهه : لعلك انتهرتها أو أخفتها ؟ فقال عمر : قد كان ذلك . فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا حــد على معترف بعد بلاء ، ومن قيد أو حبس أو هدد فلا اقرار له . ولم يجد

عمر رضى الله عنه غير اخـلاء سـبيلها فتركهـا ثم قال : عجز النسـاء أن يلدن مثل على ، ثم قال : لولا على لهلك عمر !

قمم عالية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تنشد العدل حيث كان ولو كان به حيف يمس السلطان ، فهدفها الانصاف ولا خوف عليهـا الا من الله عز وجل ويتضاءل عندها بعد ذلك كل رهبة أو سطوة لسـلطان .

* * *

انظر وتأمل معى هذه القضية : جيء الى أمير المؤمنين عمر بسـارق فقطعه ، ثم جيء اليه مرة ثانية فقطعه ، ثم جيء اليه ثالثة فهم بقطعه فقال لـه الامام : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فانك قطعت يده ورجله ، احبسه ، فحبسـه !

* * *

ذاك منتهى العدل أن يذعن السلطان وهو عمر الجبار لأمر العـدل والقضاء تلك سمة من سمات علم النبوة ورحمة مسداة للمسـلمين من الراشدين .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما رواه الصدق من أنه جاء رجل اليه فأقر بالسرقة فقال له الامام : أتقرأ شيئا من القرآن ؟ قال الرجل : نعم أقرأ سورة البقرة . قال الامام : لقد وهبت يدك لسورة البقرة !

فقال الاشعث الكندى : أتعطل حدا من حدود الله يا أمير المؤمنين ؟

قال الامام : وما يدريك ما هذا ، ان البينة اذا قامت فليس للأمير أن يعفو ، ولكن الرجل اذا أقر على نفسه فذاك الى الامام ، ان شـاء عفـا وان شـاء قطع !

وتلك سنة سنها الامام على لولاة الأمور ، يعفو عن المقر اذا رأى فى العفو مصلحة عامة للناس ، ويقيم الحد متى توفرت البينة ، وهذا مبدأ قضـــائى مشـــهور .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يذكره ابن القيم عن الشعبى رحمه الله من أن ثلاث جوارى اجتمعن ، فركبت احداهن على عنق الأخرى ، فقرصت الثالثة المركوبة ، فقمصت ، فسقطت الراكبة فوقصت عنقها فماتت فلمـــا رفع ذلك الى على رضى الله عنـــه قضى بالدية أثلاثا على عواقلهن « الأقارب من الأب » وألغى الثلث الذى يقابل فعل المقتولة لأنها أعانت على قتل نفســـها .

* * *

ومن فقهه العالى ما رواه الزبير بن بكار حيث قال :

خطب عمر رضى الله عنه أم كلثوم بنت الامام على من فاطمة الزهراء ، فقالت له : انهـــا صغيرة .

فقال : زوجنيها يا أبا الحسن فأنى أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحـــد .

فقال : أنا أبعثها اليك فان رضيتها زوجتكها .

فبعث اليه ببرد وقال لهـــا : قولى له هذا هو البرد الذى ذكره أبى.
فقالت له أم كلثوم ذلك .

فقال عمر : قولى له قد رضيت البرد الذى بعثت به رضى الله عنك، ثم أجلسها الى جانبه وجعل يربت على كتفها ، ولكنها ــ فى حمية هاشمية ــ

قالت له : أتفعل معى هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ثم انصرفت الى أبيها فأخبرته الخبر قالت له : لقد بعثتنى يا أبت الى شيخ سوء ٠ قال لها الامام : مهلا يابنية فانما هو زوجك ٠

لقد تتبع الامام على كرم الله وجه أثر النبى صلى الله عليه وسلم فى أدب الخطبة اذ قال المعصوم فى الحديث الشريف « اذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر منها ما يدعوه الى الزواج فليفعل » ٠

أما عمر رضى الله عنه فلم يكن ليضع يديه عليها قبل أن يخطبها من أبيها ورأى منها الصلاح ، حتى أنه لما تزوج بها خرج على الناس فرحا وهو يقول : رفئونى ٠٠ رفئونى ٠ فقالوا : بم يا أمير المؤمنين نرفئك ؟ قال: تزوجت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة الا سببى ونسبى وصهرى » ٠

فتزوجت أم كلثوم ! ٠

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يذكره الثقات عن الامام جعفر الصادق قال : « ان رجلا أتى بامرأة الى عمر فقال : يا أمير المؤمنين هذه امرأتى وهى كما ترى ، سوداء وأنا أسود ، وقد ولدت غلاما أبيض ٠ فالتفت عمر الى الحاضرين قائلا لهم : ما ترون ؟ قالوا : نرى أن ترجمها ٠ فأمر عمر بأن ترجم ٠ وفيما هى فى الطريق الى الحفرة أقبل الامام ثم سأل فحدثوه بما أمر به أمير المؤمنين ، فقال الامام للاسود : اتتهم امرأتك ؟ قال الرجل : لا ٠ فمضى الامام يسأل حتى قال : هل أتيتها وهى طامس ؟ قال الرجل : لقد قالت لى فى ليلة أنى طامس ، فظننت أنها تتقى البرد فوقعت عليها ٠ فتوجه الامام للمرأة بالسؤال قائلا لها : هل أتاك وأنت طامس ؟ قالت : نعم ، واسأله اننى قد خرجت عليه ورأيت أن أطاوعه ٠ قال الامام: انطلقا والمولود ابنكما ، وانما غلب الدم النطفة ٠

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما تحدث به جابر الأنصارى رضى الله عنه قال : جاء رجل الى على كرم الله وجهه فقال : انى كنت أعزل عن امرأتى وقد جاءت بولد مع ذلك .

فقال الامام للرجل : أنشدك الله هل أتيتها ثم عاودتها قبل أن تبول ؟

فقال الرجل : نعم . فعلت ذلك . فأجابه الامام : اذن فالولد لك .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما صح عن الامام محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعا قال : جىء الى أمير المؤمنين على بامرأة مع رجل قد فجر بها . فقالت المرأة : لقد استكرهنى والله يا أمير المؤمنين ، فدرأ عنها الحد !

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه :

أن امرأة شهد عليها الشهود بأنهم وجدوا فى بعض مياه العرب رجلا وليس بعلا لها ، فأمر عمر برجمها . فقالت : اللهم انك تعلم أنى بريئة . فغضب عمر ثم قال : تفاحشين ثم تجرحين الشهود أيضا ؟ فلما جاء الامام على سئل من تلك القضية فقال : ردوها فاسألوها فلعل لها عذر يقبل فردت المرأة وسئلت فقالت : كان لأهلى ابل فخرجت فى ابلهم وحملت معى ماء ولم يكن فى ابل أهلى لبن ، وخرج معى خليطنا ، وكان فى ابله لبن ، فنفد ما كان معى من ماء ، فاستسقيته فأبى أن يسقينى حتى أمكنه من نفسى ، ولكننى أبيت ، فلما كادت نفسى تخرج من شدة الظمأ أمكنته من نفسى تحت سلطان الاكراه . فقال الامام : الله أكبر . ثم تلا : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم ﴾ (البقرة : ١٧٣) .

فلما انتهت القضية الى أمير المؤمنين عمر خلى سبيل المرأة .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه التى جرت على هذا المنوال ما يأثره أهل الثقة من أنه قد جىء الى عمر رضى الله عنه برجل وامرأة ، فقال الرجل للمرأة : يازانية ، فأجابته المرأة : أنت أزنى منى . فأمر عمر رضى الله عنه أن يجلد كل منهما ثمانين جلدة حد القذف — ولكن الامام على —

كرم الله وجهه قال فى المجلس : لا تعجلوا • ثم قضى على المرأة بأن يقام عليها حدان وقرر أن الرجل لا شيء عليه ، ثم علل ذلك القضاء بقوله : ان على المرأة حد لقاء افترائها وحدا آخر لقاء اقرارها على نفسها ، غير أنه لا يصار بها الى غاية الحد •

أى لا تضرب حد المفاحشة كاملا لأن الحد الكامل بعد الاقرار أربع مرات ، كما جاء فى الكتاب الكريم : ﴿ ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين • والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين • ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾

(النور : ٨ ــ ١٠)

ومن أقضيته كرم الله وجهه : قضاء لم يقض به أحد قبله وكان هو أول من قضى به بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض صلوات الله وسلامه عليه وأفضى الأمر الى أبى بكر • جيء اليه برجل شرب الخمر ، فقال له أبو بكر : هل شربت الخمر ؟ فقال الرجل : نعم شربتها • فعاد أبو بكر يسأله : ولم شربتها وهى محرمة ؟ قال الرجل : لقد أسلمت يا خليفة رسول الله ومنزلى بين ظهرانى قوم يشربون الخمر ويستحلونها ، ولو علمت أنها حرام لاجتنبتها • فالتفت أبو بكر رضى الله عنه قائلا له : ما تقول يا أبا حفص فى هذا الرجل ؟ فقال عمر : معضلة ليس لها الا أبا الحسن • فدعا أبو بكر بغلام له ثم أمره أن يذهب الى الامام فيدعوه اليه ، غير أن عمر رضى الله عنه قال : يأتى الحكم فى منزله ، ثم قام ومعه أبو بكر وسلمان الفارسى فأخبروا الامام بقصة الرجل فقال كرم الله وجهه لأبى بكر رضى الله عنه : ابعث مع الرجل من يدور به على مجالس المهاجرين والأنصار ، فمن كان قد تلا عليه آية تحريم الخمر فليشهد عليه ، فان لم يكن من يشهد عليه بذلك فعليهم أن يتلوا عليه آية التحريم ثم لا شيء عليه بعد • ففعل أبو بكر ما أشار به عليه الامام ، ولكن أحدا لم يشهد عليه فخلى سبيله الامام •

وهنا تحمس سلمان الفارسى رضى الله عنه فقال : لقد أرشدتهم !
وكأنه انما أراد أن يعترض على قضاء الامام فقال كرم الله وجهه :

انما أردت أن أجدد تجويد هذه الآية فى دينهم ﴿ انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ (المائدة ٩٠ ، ٩١) ثم توجه كرم الله وجهه بالحديث الى سلمان ومظاهريه على رأيه فتلا عليهم قوله تعالى من سورة يونس ﴿ أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يدى الا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون ﴾ (صدق الله العظيم) .

* * *

ومن أقضيته ما يرويه الامام الباقر رضى الله عنه قال :

جىء الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بقدامة بن مظعون وقد شرب الخمر فشهد عليه رجلان أحدهما « خصى » وهو عمرو التميمى ، والآخر يعلى بن جارود فشهد أحدهما أنه رأى قدامة يشرب الخمر وشهد الآخر أنه رآه يقىء الخمر فأرسل أمير المؤمنين عمر الى أناس من الصحابة فيهم الامام على كرم الله وجهه فقال له : ما تقول يا أبا الحسن فى هذه القضية ؟ فانك الذى قال فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم انك أعلم هذه الأمة وأقضاها بالحق ــ وقد اختلف الرجلان فى شهادتهما على قدامة ابن مظعون .

فقال الامام : انهما لم يختلفا فى شهادتهما ، فقد شرب الخمر فشهد عليه عمرو التميمى بأنه رآه يشرب ، ثم شهد الآخر بأنه يقىء الخمر ، فالذى قاءه هو الذى شربه فهما لم يختلفا فى شهادتهما عليه .

فسأله أمير المؤمنين عمر : هل تجوز شهادة الخصى يا أبا الحسن ؟

فأجابه كرم الله وجهه : ما ذهاب لحيته الا كذهاب لبعض أعضائه فلا مانع من شهادته .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه في اليمن قضاؤه في مولود تنازعه ثلاثة نفر كلهم يدعيه لنفسه ، وكان أولئك الثلاثة قد وقعوا على أم ذلك الولد في طهر واحد ، فدعا كرم الله وجهه باثنين منهم فقال لهما : طيبا لهذا بالولد . قالا : لا » ثم قال لاثنين : « طيبا بالولد لهذا » فقالا : لا » ثم قال لاثنين آخرين : طيبا بالولد لهذا . فقالا : لا . فقال لهم كرم الله وجهه : أنتم شركاء متشاكسون وانى أقرع بينكم فمن قرع فله الولد وعليه لصاحبيه ثلث الدية » ثم أقرع بينهم فجعله لمن صارت له القرعة وجعل لصاحبيه عليه ثلث الدية .

فلما ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك سرورا حتى بدت نواجذه ! وقد ذهب الى القول بهذا الحديث اسحاق بن راهويه قائلا : « انه السنة في دعوى الولد » .

وكان الشافعي رضي الله عنه يقول به في القديم . وأما الامام أحمد فرجح عليه حديث « القافة » وهو الذي يعرف شبه الرجل بأبيه وأخيه قائلا : « حديث القافة أحب الى » .

ويقول شيخ الاسلام ابن القيم : ووجه آخر أحسن من هذا وهو أنه لما أتلفه عليهما بوطئه ولحوق الولد به ، وجب عليه ضمان قيمته ، وقيمة الولد شرعا هي ديته ، فلزمه لهما الثلث وقيمته وهي ثلث الدية ، وصار هذا كمن أتلف عبدا بينه وبين شريكين له ، فانه يجب عليه ثلثا القيمة لشريكيه فاتلاف الولد الحر عليهما — بحكم القرعة — كاتلاف الرقيق الذي بينهم .

وهذا من لطف ما يكون من القياس وأدقه ولا تهتدى اليه الا أفهام الراسخين في العلم ، وليس في الشريعة شيء يخالف القياس وليس في

المنقول عن الصحابة مما لا يعلم لهم فيه مخالف كذلك ، كما أن المعقول الصحيح دائر مع أخبارها وجودا وعدما فان الله تعالى لم يخبر لا هو سبحانه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم بما يتناقض صريح العقل ، ولم يشرع سبحانه ما يناقض الميزان والعدل !

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : قضاؤه الذى رواه القرطبى عن الشعبى حيث يقول :

بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف فى عدتها ، فاستقدمهما عمر وفرق بينهما قائلا للرجل : لا تتزوجها أبدا . ثم جعل أمير المؤمنين عمر صداقها فى بيت مال المسلمين ، وقد فشا ذلك فى الناس ، فلما بلغ الامام على كرم الله وجهه جعل يقول : يرحم الله أمير المؤمنين عمر . ما بال الصداق وبيت المال ؟! انما جهل الزوجان فعلى الامام أن يردهما الى السنة . فقال له قائل : فما تقول أنت فيهما ؟ فقال : لها الصداق بما استحل منها ويفرق بينهما ، ولا جلد عليهما ، وعليها أن تكمل عدتها من الأول ثم تقعد من الثانى عدة كاملة ثلاثة أقراء ثم يخطبها الرجل ان شاء .

فلما بلغ ذلك عمر أمير المؤمنين خطب فى الناس فقال :
أيها الناس ردوا الجهالات الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لأحد أن يفتى فى المسجد وعلى حاضر .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه والتى تنال الاعجاب من السامع والقارىء على السواء هى :

« أن امرأة حرة تزيت بزى الاماء ، ثم راحت تلتمس رجلا كانت تريده ومازالت به حتى واقعها معتقدا أنها جاريته ، فلم يتبينها والرغبة

جامحة والظلام شديد ، فلما رفع أمرهما الى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، أرسل الى الامام على كرم الله وجهه يستفتيه فقال له كرم الله وجهه: اضرب الرجل حدا فى السر ، وأضرب المرأة حدا فى العلانية ».

وذلك لعمرى هو عين اليقين والصواب ، فالرجل أتى المرأة جاهلا حقيقتها ، ولعله راقبها معتقدا أنها جاريته ، فلا ضرورة فى تلك الحال للتشهير به ، فكما واقعها فى السر يجلد فى السر ، أما المرأة فقد احتالت الى هذه الموقعة بكل غرائزها فحق عليها الحد فى العلن !

* * *

ويروى الامام جعفر الصادق أن أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه قضى فى امرأة زوجها وليها وهى برصاء فقال : ان لها المهر بما استحل منها وأن المهر على الذى زوجها .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يرويه الثقة عن الامام جعفر الصادق رضى الله عنه قال : شاعت فى الناس شائعة أن امرأة تفاحش ، فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فبعث اليها فروعها ، ثم أمر أن يجاء بها اليه ، ففزعت المرأة فزعا شديدا حتى أخذها الطلق ، فذهبت الى بعض الدور فولدت غلاما فاستهل الغلام ثم مات ، فدخل على عمر من الروعة بموت الغلام فى هذه الحال ما شاء الله ، فقال له بعض جلسائه : لا عليك يا أمير المؤمنين غير أن عمر رضى الله عنه لم يقبل هذا القول من جلسائه بل طلب اليهم أن يسألوا عليا ، فقال لهم كرم الله وجهه : ان كنتم قد أجهدتم فما أصبتم، ولئن كنتم قلتم برأيكم لقد أخطأتم » ثم قال : ان على أمير المؤمنين دية الصبى ، عتق رقبة لوجه الله تعالى . ففرح أمير المؤمنين عمر وأخذ الصحابة برأى الامام .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أن امرأة حرة دلس عليها عبد فتزوجها وهى تظن أنه حر وان كان عبدا فى حقيقة أمره ، فقضى فى هذه الواقعة الامام كرم الله وجهه أن يفرق بينهما ان شـــاءت المرأة التفريق والا ظلت زوجة لـــه .

* * *

ومما يرويه الثقاة عن الامام : القوم يغرقون فى السفينة أو يقع عليهم البيت فيموتون دون أن يعرف أيهم مات قبل صاحبه . فقال الثقة أن قضاء الامام كرم الله وجهه فى هذه المسألة أن يورث بعضهم بعضا .

ومن أقضيته كرم الله وجهه :

روى ابن أبى شيبة أن قوما من أهل الشام شربوا الخمر وعليهم يزيد ابن أبى سفيان ، وقالوا : هى لنا حلال وتأولوا هذه الآية ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ .

فكتب فيهم الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه : أن ابعث بهم الى قبل أن يفسدوا من قبلك ، فلما قدموا على عمر ، استشار فيهم الناس ، فقالوا : يا أمير المؤمنين . انهم قد كذبوا على الله وشرعوا فى دينهم ولم يأذن به الله فاضرب رقابهم .. وعلى ساكت . فقـــال عمر : ما تقول يا أبا الحسن ؟ قال : أرى أن تستتبهم فان تابوا فأجلدهم ثمانين لشربهم الخمر ، وان لم يتوبوا ضربت أعناقهم قد كذبوا على الله وشرعوا فى دينهم ما لم يأذن الله به ، فاستتابهم فتابوا فجلدوا ثمانين .

* * *

ويروى الامام الباقر رضى الله عنه أن أمير المؤمنين عليا قضى فى رجل بأنه سرق فأمر بقطع يده حتى اذا كان بعد ذلك جاء الشاهدان برجل آخر زعما أنه السارق وأنهما أخطآ نسبتهما السرقة الى الذى قطعت يده ، فغضب الامام على أشد الغضب ثم غرم الشاهدين نصف الدية ولم يجز شهادتهما على الآخر .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يرويه الثقة مرفوعا اليه « أن الامام قضى فى رجل وامرأة ماتا معا فى الطاعون على فراش واحد ويد الزوج تضم الزوجة الى صدره ، فجعل الميراث للرجل قائلا انها ماتت قبله ، ثم لحقها هو فمات بعدها •

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أن رجلا كاتب مملوكا له مشترطا عليه أن ميراثه له ، فلما رفع ذلك اليه أبطل شرطه قائلا له : « ان شرط الله قبل شرطك » •

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : بأن لا يقام على أحد حد بأرض العدو وهذا لا يخفى على المقاتلين ، فلربما فر بعد الحد أو أثناءه الى العـدو وكشف عن عورات المسلمين •

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أنهم قدموا اليه رجلا يستحق القطع فأمر بأن تقطع يمينه ، فقدموا شماله فقطعوها وهم يحسبونها يمينه ، ثم قدموا لتقطع يمينه فقالوا : انما قطعت شماله ، فقال كرم الله وجهـه : لا تقطعوا يمينه اذ قطعت شماله •

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أنـه رفض قطع سـارق البيضة من الغنيمة قائلا لمن قدموه : انى لا أقطع أحدا فيما أخذ شرك !

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه قضاؤه فى السارق اذا قبض عليه وقد أخذ المتاع دون أن يخرج من البيت • فقال كرم الله وجهه : ليس على هذا قطع حتى يخرج بالذى سرق من الدار !

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أنه لا قطع على أربعــة : أحــدهم المختلس وثانيهم الغــال (الخــائن) وثالثهم الســارق من الغنيمــة ، ورابعهم الأجير .

« ومن قوله فى هذا الخصوص : اذا سرقنى عبدى لم أقطعه ، فاذا سرق غيرى قطعته ، وكذلك عبــد الامان اذا سرق لــم أقطعه لأنه فىء » .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يرويه الثقة من أنه جىء اليه برجل فقال : هذا قذفنى . ولم تكن له بينة فقال : يا أمير المؤمنين استحلفه : فقال الامام : لا يمين فى حد !

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يرويه الثقاة من أنه جىء اليه برجل استوجب حدا فأمر الامام خادمه قنبرا أن يضربه الحد ، فغلظ قنبر فزاده ثلاثة أســواط ، فأمــر المضروب بأن يقتــص من قنبر فيضربه ثلاثة أســواط .

* * *

ومن فتواه الكريمة قوله كرم الله وجهه : تستوفى الدية فى القتــل الخطأ فى ثلاث سنوات ، وأن تستوفى دية العمد فى سنة واحدة ، وكان يقول : قضاء ماضيا : من ضربناه حدا من حدود الله فمات فلا دية له علينا، ومن ضربناه فى حقوق الناس فمات ، فديته علينا .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه فيما روى عن الصادق : أنه جلد رجلا افترى على جماعة فجلده حدا واحدا .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أنه قد اختصم اليه رجــلان اشترى أحدهما من الآخر بعيرا واستثنى البائع رأس البعير وجلده ، ثم بــدا للمشترى أن ينحر البعير فقال الامام كرم الله وجهه للمشترى : هو شريكك فيــه على قدر الرأس والجلد .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أنه جلد الوليد بن عتبة بسوط لـه شعبتان أربعين جلدة ، فقد اعتبر كل شعبة سوطا فيكون قد جلده ثمانين جلدة هى حد شرب الخمر .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما ذكره الامام جعفر الصادق من أنه جىء اليه كرم الله وجهه برجلين قذف كل واحد منهما صاحبه باللواط ، فدرأ عنهما الحد وعذرهما .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه فى رجل دعا آخر بابن المجنون فقـال له الآخر : أنت ابن المجنون ، فأمر الامام أول الرجلين أن يجلد صاحبه عشرين جلدة فلما جلده ، أعطى المجلود السواط فجلده عشرين جلدة ، وكان ذلك تنكيلا بهما كليهما .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه فيما يرويه جعفر الصادق أن الامـام كرم الله وجهه نهى أن يشترى مشترى شبكة الصياد على أن يقول له : أضرب شبكتك فما خرج منها فهو مالى بكذا وكذا ...

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه قضاؤه برد شهادة شاهدين من اليهود اذا شهدا على يهودى أنه أسلم ، ووجه ذلك عنده كرم الله وجهه أنهما يجيزان تغير كلام الله وشهادة الزور ، فلما سئل عن شاهدين من النصارى شـهدا على نصرانى أو مجوسى أو يهودى بأنه أسلم أجاز شهادتهما قائلا : ان الله يقول فى النصارى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ ثم قال كرم الله وجهه « ان من لا يستكبر عن عبادة الله لا يشهد الزور ! » .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه قضاء ينتمى الى قاعدة كلية تقول : لو أن رجلا أراد الحج فعرض له مرض أو خالطه سقم فلم يستطع الخروج لكان له أن يجهز رجلا من ماله ثم يبعثه مكانه .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : بأن لا يقتل الوالد اذا قتل ولده ولكن يقتل الولد اذا قتل والده .

* * *

ومن أقضيته ما يرويه الثقة عن الأصمعى رحمه الله قال : أخذ الامام على كرم الله وجهه قوما بسرقة فحبسهم ثم جاء رجل فقال : يا أمير المؤمنين انى كنت معهم وقد تبت الى الله ، فأمر الامام باقامة حد السرقة عليه ثم أنشـد قول الشاعر :

وادخل رأسـه لم يدعـه أحـد

بـين القرنـين حتى لـزه القرن

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يرويه الامام جعفر الصـادق قال : ان أمير المؤمنين عليـا قال : اذا ماتت المرأة وفى بطنها ولد يتحرك فان بطنها يشق ليخرج منه الولد ، وقال فى المرأة يموت فى بطنها فيخاف عليها من ذلك لا بأس ان يدخل يده فيقطع الجنين الميت ويخرجه اذا لم تترفق به النسـاء .

* * *

وقال المسعودى فى هذا : ان من هؤلاء الذين ماتت أمهاتهم وشقت بطونهن واستخرجت منها الأجنة أحياء .. قيصر الروم ، ومن العرب .. خارجة بن سنان أخو هرم بن سنان ، ممدوح زهير بن أبى سلمى .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أنه جىء اليه بالنجاشى الشاعر وقـد

شرب الخمر فى شهر رمضان ، فضربه الامام ثمانين جلدة ثم حبسه ليـلا ثم دعـا به الى الغد فضربه عشرين سوطا فقال له : ما هذا الذى صنعت بى ؟ ضربتنى ثمانين فى شرب الخمر يا أمير المؤمنين فما هذه العشرون ؟ فقال : شربت الخمر فجلدناك ثمانين ، ثم دعونا بك فضربنـاك عشرين لجرأتك على الشرب فى رمضان .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أن صبيانا فى زمنه كانوا يلعبون فرمى أحدهم فوق رباعية صاحب من أصحابه فرفع ذلك اليه فدعا بالرامى فأقام البينة بأنه قال قبل الرمى : ضرار ، فدرأ الامام عنه القصاص قائلا : لقد أعذر من أنذر .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أنه لم يجعل على المستحاضة حدا حتى ينقطع عنها دمها ، وكذلك لم يجعل على الحائض حتى تطهر ومثلها النفساء، وكذلك لم يجعل على الحامل حدا حتى تضع حملها .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يرويه الثقة عن الامام جعفر الصـادق من قوله : كان أمير المؤمنين عليه السلام اذا بلغه أن مولى تزوج حرة ، طلب اليه أن يطلقها فان أبى جعل الامام له حظيرة من قصب وجريد فحبسه فيها ثم أعطاه قوته من طعامه وشرابه حتى يطلق زوجته .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يرويه الثقة من أن رجلا جاء الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال : انى طلقت امرأتى تطليقة فى الشرك وتطليقتين فى الاسلام ، فما ترى يا أمير المؤمنين ؟ فسكت عمر . فقـال الرجل : ما تقول يا أمير المؤمنين . فقال عمر : كما أنت حتى يجىء على ابن أبى طالب ، فلما جاء قص عليه الرجل قصته فقال الامام : لقد هدم الاسلام ما كان قبله والمرأة عندك على واحدة .

وذلك مصداقا للحديث الشريف « الاسلام يجب ما قبله » .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما رواه الثقة عن الامام الباقر رضى عنه قال : كان لرجل على عهد أمير المؤمنين على جاريتان فولدتا جميعا ، احداهما ولدا ذكرا والأخرى بنتا ، فعمدت صاحبة البنت فوضعت بنتها فى المهد الذى فيه الولد الذكر ثم أخذته لنفسها ، ثم تنازعتا الولد الذكر فكل واحدة منهما تدعيه لنفسها ، فتحاكما الى أمير المؤمنين كرم الله وجهه فأمر أن يوزن لبنهما قائلا : أيتهما كان لبنها أثقل فالولد الذكر لها .

على أن شريح القاضى يرويها على وجه آخر فيقول : كنت أقضى لعمر بن الخطاب فأتانى رجل فقال لى : يا أبا أمية ، ان رجلا أودعنى امرأتين .. احداهما حرة مهيرة والأخرى سرية « أمة » فجعلتهما فى دار وأصبحت اليوم فاذا هما قد ولدتا غلاما وجارية وكلتاهما تدعى الغـلام لنفسها وتنتفى من الجارية ، وقد جئتك أيها القاضى أطلب قضاءك بينهما يقول شريح : فلم يحضرنى شىء فيهما أقضى به ، فأتيت أمير المؤمنين عمر فقصصت عليه القصة فقال : فما الذى قضيت بينهما ؟ قلت : لو كان عندى قضاء فيهما ما أتيت ، فجمع عمر جميع من حضره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلهم يرى الرأى الى واليـه ، فقال عمر : ولكنى أعرف مفزع القضية ومنتزعها . قالوا : كأنك أردت ابن أبى طالب . قال : نعم . واين المذهب عنه ؟ قالوا : فابعث اليه يأتك . قال : ان له شمخة من هاشم واثرة من علم تقتضيا أن نذهب اليـه ولا تأذن له أن يسعى هو الينا ، فقوموا بنا اليه ، فلما جئناه وجدناه فى حائط يركل فيه على مسحاة ويقرأ قول الله تعالى ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾ سورة القيامة .

ثم يبكى بكاء شـديدا ، ولم يجد القوم بدا من أن يجهلوه حتى تسكن نفسه ويرفأ وجهه ، ثم استأذنوا عليه ، فخرج اليهم وعليه قميص قدت أكمامه الى النصف منها ثم قال كرم الله وجهه : ما الذى جاء بك يا شريح ! قلت : أمر عرض جئنا نسأل عنه . فأمرنى فقصصت عليه القصة فقال : فيم حكمت فيهما ؟ قلت : لم يحضرنى حكم فيهما . فأخذ بيده من الأرض

شيئا ثم قال : الحكم فيها أهون من هذا • ثم أمر باحضار المرأتين واحضر قدحا ثم دفعه الى احداهما قائلا لها : احلبى فيه ، فامتثلت المرأة فحلبت فيه ، ثم وزنه ، ثم قال للأخرى ، احلبى أنت أيضا في قدح أخرى ثم وزنه أيضا ثم قال لصاحبة اللبن الخفيف : خذى ابنتك • وقال لصاحبة اللبن الثقيل خذى ابنك •

ثم التفت كرم الله وجه الى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه قائلا : أما علمت أن الله حط المرأة عن الرجل فى ميراثها فكذلك كان لبنها دون لبنه • فقال عمر : لقد أرادك الحق يا أبا الحسن ولكن قومك أبوا •

فقال الامام : خفض عليك أبا حفص • ان يوم الفصل كان ميقاتا •

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يرويه الثقاة عن الصـــادق قال : جىء الى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بامرأة تزوجت شيخا كبيرا ، فلما كانت ليلة دخوله بها مات على بطنها ، ثم وضعت المرأة ولدا ، فادعى بنوه أنها فجرت وتشاهدوا عليها ، فأمر بها عمر أن ترجم ، فمر بها على بن أبى طالب كرم الله وجهه فاستغاثت به قائلة : يا ابن عم رسول الله ، ان لى حجة على الذين تظاهروا على • فقال لها : هات حجتك ، فدفعت اليه كتابا فقرأه فقال : هذه المرأة تعلمكم بيوم تزويجها وبما يكون بين الرجل والمرأة فى ذلك اليوم ، فردوا المرأة عن الحفرة ، فلما كان من الغد دعـا بصبيان أتراب فى سن واحدة ثم دعا بالصبى معهم وأمرهم أن يلعبوا حتى اذا ألهاهم اللعب قال لهم : اجلسوا ، حتى اذا تمكنوا فى مجالسهم صـــاح بهم أن يقوموا ، فقام الصبيان وقام الغلام غير أن الغلام اتكأ على راحتيه فى أثناء قيامه ، فدعا به الامام وورثه من أبيه ، وجلد اخوته حد المفترين •• حــدا حــدا •

فقال له عمر رضى الله عنه : كيف صنعت يا أبا الحسن ؟

فقال : عرفت ضعف الشيخ فى اتكاء الغلام على راحتيه حين قام •

ومن أقضيته كرم الله وجهه : قضاؤه في رجل وصى بعد الموت بسهم من ماله دون أن يبينه ، فلما مضى الى ربه اختلف الورثة فى المراد بالسهم وكيف يصنعون ، فلما رفعوا اليه كرم الله وجهه ، قضى عليهم باخراج الثمن من ماله ثم استشهد لقضائه هذا قول الله عز وجل ثناؤه فى سورة التوبة ﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أن رجلا جاء أمير المؤمنين عثمان ابن عفان يشكو اليه أنه تزوج وأن زوجته ولدت بعد ستة أشهر ، فأراد أمير المؤمنين عثمان أن يقيم الحد عليها ، فقال له على كرم الله وجهه : ليس لك ذلك يا أمير المؤمنين فان الله تعالى يقول : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثين شهرا ﴾ — سور الاحقاف — ثم تلا من قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ .

* * *

ومن عيون فقهه كرم الله وجهه : ما يرويه عمرو بن عبيد من قوله : أحسن ما سمعت فى القضاء والقدر قول على بن أبى طالب :

« لو كان الوزر فى الاصل محتوما ، كان الموزور فى القصاص مظلوما » .

وقول واصل بن عطاء :

أحسن ما سمعت فى القضاء والقدر قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب :

« أيدلك على الطريق ويأخذه عليك بالمضيق » .

ويقول العلامة الشعبى :

أحسن مـا سمعت فى القضـاء والقـدر قول أمير المؤمنين على ابن أبى طالب :

« كل ما استغفرت الله تعالى منه فهو منك ، وكل ما حمدت الله تعالى عليه فهو منه جل ثناؤه » .

وهذه الأجوبة ردا على الحجاج بن يوسف الثقفى من علماء الاسلام حين سألهم عن القضاء والقدر فأجابوه بما حفظوه وسمعوه من أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وهو ألد أعدائه فما كان منه الا أن قال : لقد أخذوها من عين صافية !

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : أن جاءته امرأتان فسألاته المعونة على العيش ، فدفع اليهما كرم الله وجهه ـ دراهم وطعاما بالسواء . فقالت احداهما فى غضب : انى امرأة من العرب وهذه من العجم . فكيف نكون سواء فى العطاء يا أمير المؤمنين ؟ فقال لها الامام :

« انى والله لا أجد فضلا لك عليها » .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يرويه الثقاة عن جعفر الصـادق رضى الله عنه قال : ولد على عهد أمير المؤمنين مولود له رأسان وصدران فمضى أهل المولود الى الامام يسألونه عن ميراثه : أيرث ميراثين أم يرث ميراثا واحدا ، فقال : يترك المولود حتى ينام ثم يصاح به فان انتبها جميعا معا كان له ميراث واحد ، وان انتبه أحدهما وبقى الآخر نائما ورث هذا المولود ميراث اثنين .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه ذلك القضاء الذى جمع له فيه الفقـه بالشريعة والعلم والتاريخ حيث روى الثقة عن الامام جعفر الصادق رضى الله عنه قال :

جيء الى عمر بن الخطاب بجارية شهد عليها شهود بأنها بغت وفجرت وكان من قصتها أنها كانت يتيمة عند رجل وكان الرجل كثيرا ما يتغيب عن أهله ، فلما شبت اليتيمة وبلغت مبلغ النساء خشيت زوجة الرجل أن يتزوجها فتصبح ضرتها بعد أن كانت أمتها ، فدعت بنسوة فأمسكنها ، فانتهزت الفرصة فأخذت عذرتها بأصابعها ، فلما قدم زوجها من غيبته قذفت المرأة اليتيمة واتهمتها بالفاحشة ، وأقامت البينة من جاراتها اللائى ساعدنها على ذلك الاثم الشنيع ، فرفع الزوج ذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكن عمر لم يدر كيف يقضى فى هذه القضية المستعصية ، فقال للرجل : اذهب الى على بن أبى طالب ونذهب اليه معك ، ثم أتوا عليا ــ كرم الله وجهه ــ وقصوا عليه القصة ، فقال لزوجة الرجل : أمعك برهان على ما تقولين فى حق الجارية ؟

قالت المرأة : نعم لى شهود .. هؤلاء جاراتى يشهدن عليها بما أقول فأمر الامام كرم الله وجهه باحضارهن . فلما حضرن أخرج على سيفه من الغمد فطرحه بين يديه ، ثم أمر بكل واحدة منهن فادخلت بيتا ، ثم دعا بامرأة الرجل فجعل يحاورها ويداورها بكل وجه ولكنها أبت أن تنزل عن قولها فردها الى البيت الذى كانت فيه ، ثم دعا باحدى الشاهدات وجثا على ركبتيه ثم قال : هل تعرفينى ؟ أنا على بن أبى طالب وهذا سيفى فى يدى ، وقد قالت زوجة الرجل ما قالت ثم رجعت الى الحق فأعطيتها الأمان ، وان أنت لم تصدقينى القول فلا بد لى من أن أمكن السيف منك، فالتفتت الشاهدة الى عمر رضى الله عنه قائلة : يا أمير المؤمنين الامان على الصدق ؟ فقال لها : اصدقى يا امرأة . فجعلت المرأة تقول : « لا » والله ان زوجة الرجل رأت للجارية جمالا وهيئة فخشيت أن تفسد عليها زوجها فسقتها المسكر ، ثم دعتنا فأمسكناها لها فأزالت بكارتها بأصبعها . فقال على كرم الله وجهه : الله أكبر ، والحمد لله الذى جعلنى بعد دانيال أول من فرق بين الشهود لمعرفة الحقيقة ، ثم قضى كرم الله وجهه عليهم بحد القذف ، وقد ألزمهم جميعا دية البكارة التى يسميها الفقهاء بالعقر على أن يكون عقر تلك الأمة أربعمائة درهم .

ولم يقف كرم الله وجهه عند هذا الحد بل طلب من زوج المرأة أن يطلقها ويتزوج الجارية وساق المهر لها من ماله الخاص ارضاء لها .

وهنا هتف عمر رضى الله عنه « لولا على لهلك عمر » ثم طلب من الامام على أن يحدثه بحديث دانيال الذى أشار به فقال كرم الله وجهه : « ان دانيال كان يتيما لا أم له ولا أب ، وقد ضمته اليها امرأة من بنى اسرائيل كبيرة السن فربته أحسن تربية ، وكان من ملوك بنى اسرائيل ملك له قاضيان ، وكان لهذين القاضيين صديق معروف بالصلاح والتقوى وله مع ذلك ـ امرأة ذات هيئة وجمال ، فكان يأتى الملك فيحدثه فاحتاج الملك ذات يوم الى رجل يبعثه فى بعض أموره فقال للقاضيين : أشيرا على برجل ترتضيانه أرسله فى بعض أمورى ، فأشارا عليه بصديقهما التقى زوج المرأة الجميلة ، فلما دعا الملك به وجهه الى ما يريد ، فامتثل الرجل أمر الملك ، ثم ذهب الى القاضيين فأوصاهما بامرأته خيرا فأجاباه الى ما أراده منهما قائلين له : ان امرأتك فى موضع العناية منا ، فسافر وأنت مطمئن الى حسن رعايتها وبذلنا لها كل ما فى طاقتنا لراحتها . ثم جعل القاضيان يأتيان باب الرجل الصديق يسألان عن زوجته قضاء للحق لصديقهما عليهما فى رعاية زوجته والقيام بشئونها والعمل على راحتها وتجنبها الوحشة بفراق زوجها ، ولم يطل الأمر بهما حتى وجد كل منهما فى نفسه طلائع العشق لها ونوازع الرغبة فيها فراودها كل منهما عن نفسها فأبت عليهما حفظا لعهد زوجها ورعاية لحقه واعتزازا بشرفها وشرف زوجها فى منصبه الجليل وسمو منزلته فى مجتمع بنى اسرائيل ولكن جموح الرغبة فى نفس القاضيين حملهما على أن يتعهدا المرأة قائلين لها : لئن لم تفعلى ما نطلبه اليك لنشهدن عليك عند الملك بأنك بغيت وفاحشت ، فلا يجد مندوحة عن رجمك بالحجارة حتى تموتى حسبما تقضى بذلك شريعة التوراة .»

ولكن المرأة مع ذلك لم تستجب لهما فقالت فى ازدراء لسلوكهما الشائن : افعلا ما أحببتما . فذهب القاضيان الى الملك فأخبراه ، وشهدا

عنده بأن زوجة صاحبهما بغت ، فدخل الملك من ذلك أمر عظيم واشتد به الغم وقد كان بها معجبا ، فقال للقاضيين ، ان قولكما مقبول ولكن امهلونا ثلاثة أيام .

وأمر بأن ينادى فى البلد بأن قد تقرر قتل فلانة العابدة حسنة السير والسلوك لأنها بغت وفاحشت ، وقد شهد عليها القاضيان بذلك . ولم يصدق الناس ذلك فأخذوا يتساءلون ، فقال الملك لوزيره : ماذا ترى فى هذا الأمر ؟ فقال له الوزير : ما عندى فى ذلك حيلة ، ثم خرج حتى اذا كان اليوم الثالث أبصر الوزير غلمانا عراة يلعبون ومعهم دانيال يلعب والوزير لا يعرفه ، فنادى دانيال رفقاءه قائلا : تعالوا أيها الصبيان حتى أكون أنا الملك ، وتكون أنت يا فلان المرأة العابدة ، ويكون فلان وفلان القاضيين اللذين شهدا عليها بالفاحشة . ثم جمع دانيال ترابا وجعل سيفا من قصب وقال للصبيان :

خذوا بيد هذا فابعدوه الى مكان كذا ومكان كذا ، ثم خذوا بيد هذا فابعدوه الى مكان كذا وكذا ، ففعلوا ما أراد .

ثم دعا دانيال بأحدهما فقال له : قل حقا فانك ان لم تقل حقا قتلتك . وقد كان الوزير قائما يسمع وينتظر ، فقال الصبى : أشهد أنها بغت ، فسأله دانيال : متى ؟ قال يوم كذا وكذا . قال : ردوه الى مكانه وهاتوا الآخر . فردوه وجاءوا بالآخر فقال له : بم تشهد ؟ قال : أشهد أنها بغت . قال : متى ؟ قال : يوم كذا وكذا . قال دانيال : مع من ؟ قال : مع فلان بن فلان . قال : وأين ؟ قال : موضع كذا . فخالف صاحبه ، فقال دانيال : يا فلان ناد فى الناس أن الشاهدين انما شهدا على فلانة بالزور ، فاحضروا قتلهما . فذهب الوزير الى الملك مبادرا فأخبره الخبر ، فبعث الملك الى القاضيين فسألهما فاختلفا كما اختلف الغلامان ، فنادى الملك وأمر بصلبهما » .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يسنده أهل العلم الى الامام الباقر حيث قال : دخل أمير المؤمنين المسجد فاستقبله شاب يبكى وحوله جماعة يسكتونه • فسأله : ما أبكاك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ان شريحا القاضى قضى قضاء لا أرى وجهه • فسأله الامام عن القضية فقال : ان هؤلاء النفر خرجوا وأبى معهم فى سفر ثم رجعوا ولم يرجع أبى ، فسألتهم عنه فقالوا: لقد مات أبوك ، فسألتهم عن ماله فقالوا : ما ترك مالا ، فقدمتهم الى شريح فاستحلفهم ، وقد علمت يا أمير المؤمنين أن أبى خرج ومعه مال كثير • فأمرهم أمير المؤمنين أن يرجعوا الى شريح فرجعوا اليه والفتى معه، فقال له أمير المؤمنين : كيف قضيت يا شريح بين هؤلاء ؟ قال : لقد ادعى هذا الفتى على هؤلاء النفر أنهم خرجوا فى سفر وأبوه معهم فرجعوا ولم يرجع أبوه ، فسألتهم عنه فقالوا : انه مات ، فسألتهم عن ماله فقالوا : ما خلف مالا فقلت للفتى : هل لك بينة على ما تدعى ؟ قال : لا بينة عندى، فاستحلفتهم يا أمير المؤمنين • فقال أمير المؤمنين : هيهات يا شريح • ما هكذا تحكم فى مثل هذا قال شريح : فكيف أحكم يا أمير المؤمنين ؟ فقال كرم الله وجهه : والله لأحكمن فيهم بحكم داود النبى عليه السلام•

ثم دعا كرم الله وجهه قمبرا مولاه قائلا : ادعى لى بشرطة الخميس ــ شرطة الأمن ــ فلما حضروا وكل بكل رجل منهم رجلا من الشرطة ، ثم نظر الى وجوههم فقال : ماذا تقولون ؟ هل تقولون انى لا أعلم ما صنعتم بوالد هــذا الفتى ــ انى ــ اذا ــ لجاهل ــ ثم قال للشرطة : فرقوهم وغطوا رءوسهم ، ففرقوا بينهم وأقيم كل رجل منهم الى جانب اسطوانة من أساطين المسجد ورءوسهم مغطاه بثيابهم ، ثم دعا كاتبه فقال : هــات صحيفة ودواة ، ثم جلس الامام فى مجلس القضاء وجلس الناس اليه • فقال لهم : اذا أنا كبرت فكبروا ثم قال للناس : اخرجوا • ثم دعا بواحد من المتهمين فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهــه ثم قال لكاتبه : اكتب اقراره وما يقول • ثم أقبــل عليــه بالســؤال فقــال له : فى أى يوم خرجتم من منازلكم وأبو هذا الفتى معكم ؟ قال الرجل : فى يوم كــذا وكذا • فسأله الامام : وفى أى شهر ؟ قال : فى شهر كذا وكذا • قــال

الامام : والى أى مكان بلغتم فى سفركم حتى مات أبو هذا الفتى ؟ قال: بلغنا موضع كذا وكذا • قال : وفى منزل من مات هذا الرجل ؟ قال : فى منزل كذا وكذا • ثم مازال الامام يسأله : من غسله ؟ من كفنه ؟ بماذا كفنتموه ؟ ومن صلى عليه ثم من نزل قبره ؟ فلما سأله الامام عن جميع ما يريد كبر كرم الله وجههفكبر الناس جميعا ، فارتاب الباقون ولم يشكوا فى أن صاحبهم أقر عليهم وعلى نفسه • وأمر الامام أن يغطى رأسه وينطلق به الى السجن ، ثم دعا آخر فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه ثم قال : زعمتم انى لا أعلم ما صنعتم • فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا الا واحد من القوم ولقد كنت كارها لقتله •

ومازال الامام يدعو واحدا واحدا حتى أقروا بالقتل وأخذ المال، ثم أمر برد الذى حبس فأقر أيضا ، فالزمهم الامام المال والدم !

* * *

ولم يغب عن شريح القاضى أن يسأل أمير المؤمنين كرم الله وجهه كيف حكم نبى الله داود عليه السلام • فقال الامام :

ان داود مر بغلمان يلعبون وينادى بعضهم بعضا بكلمة « يامات الدين » فيجيب المنادى ، فدعاهم داود فقال : ما اسمك يا غلام ؟ قال : اسمى « مات الدين » فقال له داود : من سماك بهذا الاسم ؟ قال : لقد سمانى أبى • فانطلق داود الى أمه فقال لها : أيتها المرأة ما اسم ابنك هذا ؟ قالت : مات الدين • قال لها : ومن سماه بهذا ؟ قالت : أبوه هو الذى سماه • فسأل داود ، وكيف كان ذلك ؟ قالت المرأة : ان أباه خرج فى سفر ومعه قوم وقد كان هذا الصبى حملا فى بطنى ، فانصرف القوم ولم ينصرف زوجى فسألتهم عنه فقالوا مات ، فقلت لهم: فأين ما ترك ؟ قالوا : لم يخلف شيئا ، فقلت : هل أوصاكم بوصية ؟ قالوا : نعم أوصانا فزعم أنك حبلى ، فاذا ولدت جارية أو غلاما فسميه « مات الدين » فأمضيت وصيته كما قال • قال داود : هل تعرفين القوم الذين كانوا قد خرجوا مع زوجك ؟ قالت : نعم • فسألها هل هم أحياء قالت المرأة : نعم • فأمرها داود أن تنطلق معه اليهم ، ثم مضى

معها فاستخرجهم من منازلهم فحكم بينهم بهذا الحكم بعينه ، وأثبت عليهم المـال والدم قائلا للمرأة : اجعلى اسم ولدك « عاش الدين » .

* * *

ومن فقهه كرم الله وجهه ما أجاب به أشعث بن قيس وقد سأله : كيف نأخذ الجزية من المجوس وهم ليســوا أهل كتاب ولم يبعث اليهم رســولا ؟

فأجابه كرم الله وجهه قائلا : بلى يا أشعث ، لقـد أنزل الله عليهم كتابا وبعث اليهم رسولا ، حتى ولى أمرهم ملك سكر ذات ليلة فدعى بابنته الى فراشه ، فلما أصبح تسامع به قومه ، وأنكروا عليه ما صنع ثم اجتمعوا الى بابه يقولون له : أيهـا الملك ، لقد دنست علينـا ديننـا وهلكته ، فاخرج الينـا نطهرك ونقيم عليك الحد . فقال لهم : اجتمعوا واستمعوا ، فان لم يكن لى مخرج مما ارتكبت فشأنكم وما تريدون . فلما اجتمعوا كما أمرهم قال لهم : هل علمتم أن الله تعالى لم يخلق خلقا أكرم عليه من أبينا آدم وأمنا حواء ؟ قالوا : صدقت . قال : أفليس قد زوج بنيه من بناته وبناته من بنيه ؟ قالوا : بلى . لقد فعل وقد صدقت . فهذا هو الدين . ثم تعاقدوا على ذلك ، فمحا الله ما فى صدورهم من العـلم ورفع عنهم الكتاب ، فهم الكفرة يدخلون النار بغير حساب .

قال الأشعث : والله ما سمعت بمثل هذا الجواب ، والله لا أعود لمثل ذلك أبدا .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يرويه الثقة من أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ، فماتت المرأة قبل أن يدخل بهـا : أيسوغ لـه أن يتزوج بأمهـا ؟

فكان رد الامام مرضيا لجميع الفقهاء فى الاسلام بتلك القـاعدة التى بنوا عليها فقههم قال : العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالامهات يحرم البنات .

ومن أقضيته كرم الله وجهه : ما يسـنده الثقاة عن الامام جعفر الصادق رضى الله عنه من قوله : ان سائلا سأل أمير المؤمنين عن حمل « خروف صغير » غذى بلبن خنزيرة ، فأجاب الامام على كرم الله وجهه بقوله : ان كان لا يزال يتغذى باللبن فالقوه على ضرع شاة سبعة أيام ، وان كان قد استغنى عن اللبن فقيدوه واعلفوه الكسب والخبز .

* * *

ومن فقهه كرم الله وجهه ما يرويه الثقاة عن الثورى عن السدى قـال :

كنت عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ أقبل كعب ابن الأشرف ومالك بن حيى ويحيى بن أخطب فقالوا انكم تقرءون فى كتابكم عن جنة عرضها السموات والأرض ، فاذا كانت سعة جنة واحدة كسبع سموات وسبع أراضين ، فأين تكون الجنان كلها يوم القيام ؟

فقال أمير المؤمنين عمر ، أما أنا فلا أعلم ، بينما هم فى ذلك اذ دخل الامام كرم الله وجهه فقال : فى أى شىء أنتم ؟ فالتفت اليهود اليه وذكروا المسألة . فقال لهم كرم الله وجهه : خبرونى أنتم عن النهار اذا أقبل الليل أين يكون ، وعن الليل اذا أقبل النهار أين يكون ؟

قالوا : فى علم الله يكون ، فقال كرم الله وجهه : كذلك الجنات فى علم الله تكون .

* * *

ومن فقهه كرم الله وجهه ما أجاب به ابن عنيزة الشيبانى فيما كان يذكر عن جده فقال : جاء رجل الى أمير المؤمنين على فقال : اخبرنى عن القـدر . فقال الامام : سر الله فلا تتكلف علمه .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين اخبرنى عن القدر . فأجابه الامـام كرم الله وجهه بقوله : بحر عميق فلا تلق بنفسك فيه .

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما روى عن سفيان بن عيينة قال : كان لرجل امرأتان من الأنصار وامرأة من بنى هاشم ، فطلق الرجل امرأته بعد مدة ، فذكرت الأنصارية المطلقة أنها فى عدتها وأقامت البينة عند أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، وجعلت تسأل ميراثها من زوجها الذى مات ، ولم يدر عثمان ما يحكم به ، فرد الأمر الى على فقضى كرم الله وجهه بأن تحلف المرأة أنها لم تحض بعد أن طلقها ثلاث حيضات ثم ترثه ، فلما ذكر ذلك أمير المؤمنين عثمان قضاء على الهاشمية رضيته وقالت : اذا حلفت كما قضى على ورثت •

غير أن الأنصارية تحرجت من اليمن فلم تحلف وتركت الميراث • ويقول بعض الثقاة من أهل العلم والسير : أن المرأة الهاشمية هى أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب « أروى الصغرى » •

* * *

ومن أقضيته كرم الله وجهه :

ما يسنده الرواة الى الامام جعفر الصادق رضى الله عنه قال : اشتكى رجل الى أمير المؤمنين بطنه فقال له : سل امرأتك درهما من صداقها فاشتر به عسلا ثم اشربه بماء السماء ، فان الله يشفيك ان شاء الله • ففعل الرجل ما أمره به الامام على فبرىء وزالت عنه شكواه ، ولم يكن لجلسائه بد من أن يسألوه عن سر هذه الفتوى كما عودهم ذلك وحرضهم عليه ثم رضيه منهم ، فقام اليه أحدهم فقال : ما سر ذلك يا أمير المؤمنين ؟ أهو سر سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأجابه : كرم الله وجهه: قائلا — لا لم اسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾ سورة النساء •

وكذلك قول الله تعالى : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ﴾ سورة ق : ٩

ومن قضائه كرم الله وجهه : قضية المرأة التى أنكرت ولدها صارخة فى الناس أنه ليس بولدهـا • فذلك حيث يقول الثقـة الذى روى تلك القصـة :

سمعت غلاما بالمدينة يقول : يا أحكم الحاكمين احكم بينى وبين أمى• فقال له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لمـاذا تشـكو أمك يا غلام على هذه الصورة ؟ قال الغلام : يا أمير المؤمنين ، انها حملتنى فى بطنها تسعة أشهر ثم أرضعتنى حولين كاملين ، فلما كبرت وعرفت الخير من الشر طردتنى وزعمت أنها لا تعرفنى • فاستدعى المرأة أمير المؤمنين عمر ثم سألها عمـا يقول الغلام • فقالت : يا أمير المؤمنين والذى احتجب بالنور فلا عين تراه ، اننى لا أعرف هذا الغلام ، ولا أدرى من أى الناس هو ، وهو يريد أن يفضحنى فى عشيرتى وأنا لا أزال بكرا لم أتزوج • فسألها عمر : هل لك شهود على ما تقولين ؟ فأجابت : نعم • هؤلاء أخوتى • فاستدعاهم عمر فشهدوا عنده بأن الغلام كذاب ، وأنه يريد أن يفضح أختهم فى عشيرتها وأنهـا جارية لم تتزوج • فقال عمر :

انطلقوا بهذا الغلام الى السجن حتى نسأل ، فأخذوا الغـلام الى السجن وفيماهم فى الطريق الى السجن تلقاهم الامام على كرم الله وجهه فناداه الغلام : يا ابن عم رسول الله ، انى غلام مظلوم • ثم قص عليـه ما كان قد قصه على عمر رضى الله عنه • فقال كرم الله وجهه : ردوه الى أمير المؤمنين عمر فلما ردوه اليه قال لهم عمر : لقد أمرت به الى السجن فلماذا رددتموه الى ؟ فأجابوه : لقد سمعناك تقول : لا تعصـوا لعلى أمرا ، وقد أمرنا على أن نرده اليك وألا نذهب به الى السجن • ثم جاء على كرم الله وجهـه فقـال : لأقضـين اليـوم بقضـاء يرضى رب العالمين • ثم أخذ يسأل المرأة : ألك شهود ؟ قالت : نعم • ثم تقـدم الشهود فشهدوا أن المرأة ليست اما للغلام وانما هو يريد أن يفضحها فى عشيرتها فقال الامام كرم الله وجهه : أشـهد الله واشـهد من حضر من المسلمين انى قد زوجت هذا الغلام من هذه الجارية بأربعمائة درهم أدفعها من مالى الخاص • ثم نادى قمبر مولاه أن يحضر الدراهم فأتاه بها فصبها

فى يـد الغلام قائلا له : صب هذا المال فى حجر امرأتك ولا أراك بعد ذلك الا وبك أثر العرس .

فقام الغلام فصب الدراهم فى حجر المرأة فقال لها : قومى معى الى بيت الزوجية . فصاحت المرأة : النار النار يا ابن عم رسول الله ، أتريد أن تزوجنى من ولدى ؟ هذا والله ولدى ، وقد زوجنى أخى هجينا فولدت منه هذا الغلام ، فلما كبر أمرونى أن انتفى منـه واطرده مع أنه ولدى . فنادى عمر بأعلى صوته : واعمراه .. ! لولا على لهلك عمر !

ومن فقهه كرم الله وجهه ما يرويه الثقاة عن شريح بين هانىء . من أن أعرابيا قام يوم الجمل الى أمير المؤمنين فقال :

أتقول ان الله واحد ؟ فحمل الناس عليه قائلين :

أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من توزع القلب وتشتيت الفكر ؟

فقال الامام كرم الله وجهه : دعوه ، فان الذى يريده الاعرابى هو الذى نريده من الناس . ثم قال متجها بالحديث الى الناس جميعـا فى شخص الأعرابى فقال : ان القول فى أن الله واحد يجىء على أربعة أوجـه : منها وجهان لا يجوزان على الله عز وجل ووجهان يجوزان فيه ويثبتان لـه : فأما الوجهان اللذان لا يجوزان عليه سبحانه فقول القائل : ان الله واحد . وهو يقصد بذلك باب الاعداد فهذا لا يجوز ، لأن ما لا ثانى له لا يدخل فى باب الاعداد ، أفلا ترى أنه قد كفر من قال انه تعالى ثالث ثلاثة .

وأما الوجهان اللذان يجوزان عليـه ويثبت له فقول القائل : انه الواحد الذى ليس له فى الأشـياء شبيه ولا نظير ، وكذلك ربنا جـل ثناؤه وتقدست أسماؤه واذا كان لقائل أن يقول فى هـذا الباب شـيئا ما يتضح به المقام ، فان الامام قـد أرشـد الباحثين فى علم التوحيـد الى الأحد الذى لا تكرار بعده . كقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحـد ﴾ صـدق الله العظيم . فالله جل شـأنه أحد فرد ليس مثله شىء وليس بعده شىء . جل فى علاه .

حكمة الامام

لا مناص من الاعتراف بأن الامام على بن أبى طالب هو الامام الأوحد الذى ملك زمام دولة الفصاحة وصولة البلاغة ودان له لواء الحكمة •

فهو كرم الله وجهه الصائل الجائل فى كل ضرب من ضروب الكلام• مبديا من فنون الفصاحة ووجوه البلاغة ما يروى الظامىء ويشفى السقيم•

فلم يترك سيدنا الامام على كرم الله وجهه دربا الا سار فيه ولا غرضا من أغراض الكلام الا أصابه فى لبه ، ولم يدع للفكر ممرا الا جابه مترعا فيه بأخاذاته فيزيل ما طمس على القلوب وران على الصدور بعقله النورانى وعلمه الربانى وحكمته البليغة وسليقته العربية الفصيحة وبلاغته اللغوية القويمة •

لقد أجاد مولانا أبو الحسن عليه رضوان الله ، نسج اللغة فى نسيج محكم من الأساليب الرفيعة المزينة بالحكمة والموعظة الناطقة بجلائل الألفاظ الموسومة بالمحاسن الوثرة • مقتديا بهدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى كل قول وفعل محاكيا له فى بديع اسلوبه وعظيم نفعه ومنشور ذكره وسيرته وسنته •

وأنت أيها القارىء العزيز حين تنظر بثاقب نظرك على كل ما قاله الامام كرم الله وجهه من حكم ، وكتب ، وخطب ، ومواعظ ، وأوامر ، وفتاوى ، فسترى أنك تقف على كنز ملىء بالجواهر العربية وثوابت الكلم الدينية والدنيوية ، سترى أنك أمام رجل عملاق متفرد بالعظمة والعبقرية التى تحسب له فى قضية السبق على جميع السلف الأولين ، فهو قطب العلوم ومفتاحها ، ومنهاج البلاغة ومضموها ، ومشرع الفصاحة وموئلها ، واننا لا يسعنا الا أن نضيف لهذا الكتاب الذى نحن بصدده — أيدك الله أيها القارىء — نضيف اليه نقطة من بحر علم الامام •

فلنتأمل ســويا تلك المقدرة العلوية فى صياغته كرم الله وجهه للغة كما يريد ، متمكنا منها ومن مرادفاتها حين جلس بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فيذكرون حروف الهجاء ، وأجمعوا على أن حرف الألف أكثرها دخولا فى الكلام عن ســائر الحروف فقام الامام على كرم الله وجهه وخطبهم خطبة طويلة لم يذكر فيها حرف الألف ، صــاغها بمقدرة فريدة على استجلاء الألفاظ التى تنســاق أمامه كما يشــتهى فقال لهم : « حمدت وعظمت من عظمت نقمته ، وسبقت نعمته ، وسبقت رحمتــه غضبه ، وتمت كلمته ، ونفذت مشــيئته ، حمدته حمد مقر بربوبيته ، منخضع لعبوديته ، منفصل من خطيئته ، معترف بتوحيده ، مؤمل من ربه مغفرة تنجيه ، يوم يشغل عن فصيلته وبنيه ، ونســتعينه ونسترشــده ونستهديه ونؤمن به ونتوكل عليــه ، وشهدت له تشــهد مؤمن مخلص موقن ، وفردته تفريد مؤمن متيقن ، ووحدته توحيــد عبــد مؤمن ليس له شريك فى ملكه ، ولم يكن له ولى فى صنعه ، جل مشــير وقدير ، وعون ومعين ونظير ، علم فســتر ونظر فخبر ، وملك فقهر ، وعصى فغفر ، وحكم فعــدل ، لم يزل ولن يزول ، ليس كمثله شىء ، وهــو قبــل كل شىء وبعــد كل شىء منفرد بعزته ، متمكن بقوته ، متقدس بعلوه ، متكبر بسموه ، ليس يدركه بصر ، وليــس يحيط به نظر ، قوى منيع بصير ، ســميع حليم حكيم ، رءوف رحيم ، عجز عن وصــفه من يصفه ، وضــل عن نعتــه من يعرفه ، قرب فبعد ، وبعــد فقرب ، مجيب دعــوة من يدعوه ، ويرزقه ويحبوه ، ذو لطف خفى ، وبطش قوى ، ورحمة موســعة ، وعقوبة موجعة ، رحمته جنــة عريضــة موفقة ، وعقوبته جحيم ممدودة موبقة .

وشــهدت ببعثة محمد عبده ورســوله ، ونبيه وخليله ، صلى عليه ربه صــلاة تزلفه وتعليه ، وتقربه وتدنيه ، بعثه فى خير عصر وحين فترة وكفرة رحمــة لعبيده ، ومنة لمزيده ، ختم به نبوته ووضح به حجته ، فوعظ ونصح ، وبلغ وكدح ، عليــه رحمة وتسليم ، وبركة وتكريم من غفور رحيم ، قريب مجيب ، وصيتكم جميع من حضر ، وصية ربكم ،

وذكرتكم سنة نبيكم ، فعليكم رهبة تسكن قلوبكم ، وخشية تذرى دموعكم ، وتقية تنجيكم ، قبل يوم يؤهلكم ويبليكم . يوم يفوز فيه من ثقل وزن حسنته ، وخف وزن سيئته ، ولتكن مسألتكم مسألة ذل وخضوع ، وشكر وخشوع ، وتوبة وفزع ، وندم ورجوع ، وليغتنم كل مغتنم منكم صحته قبل سقمه وشيبته قبل هرمه وكبره ، وفرغته قبل شغله ، وغنيته قبل فقره ، وحضره قبل سفره » .

ثم قرأ كرم الله وجهه من سورة القصص هذه الآية ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ . « صدق الله العظيم » .

اعجاز لقوى قلما ناله انسان ، ومقدرة فريدة على سياق الألفاظ العربية أمامه كالنهر الذى ينبع من ينبوع صاف كأديم السماء . تلك نقطة من بحر علم الامام الذى لا يدركه الغواصون اللغويون .. وأنى يصلون ؟!!

ولنتأمل حكمته البالغة كرم الله وجهه فى معرفته بالانسان فقد روى تعلب اليمانى عن أحمد بن قتيبة عن عبد الله بن يزيد عن مالك ابن دحية قال :

« كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكر عنده اختلاف الناس فقال :

« انما فرق بينهم مبادىء طينهم ، وذلك أنهم كانوا فلقة من سبخ أرض عذبها ، وحزن تربة وسهلها ، فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون ، وعلى قدر اختلافهم يتفارقون ، فتمام الرواء ناقص العقل ، وماد القامة قصير الهامة ، وذاكى العمل قبيح المنظر ، وقريب القعر بعيد السبر ، ومعروف الضريبة منكر الجليبة ، وتائه القلب متفرق اللب ، وطليق اللسان ، حديد الجنان » .

هذا .. وقد صنف الامام على كرم الله وجهه الايمان تصنيفا دقيقا انفرد به لينهل من نهله العالمون والعاملون .

سـأله سائل عن الايمان فقال :

الايمـان على أربع دعـائم : على الصـبر ، واليقين ، والعـدل والجهـاد .

والصبر منها على أربع شعب :

على الشـوق . والشفق . والزهد . والترقب .

فمن اشـتاق الى الجنة سـلا عن الشهوات .

ومن أشـفق من النار اجتنب المحرمات .

ومن زهد فى الدنيا استهان بالمصيبات .

ومن ارتقب الموت سارع الى الخيرات !

واليقين منها على أربع شعب :

على تبصرة الفطنة ، وتأول الحكمة ، وموعظـة العبرة ، وسـنة الأولين .

فمن تبصر فى الفطنة تبينت له الحكمة .

ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة .

ومن عرف العبرة فكأنما كان فى الأولين .

والعدل منها على أربع شعب :

على غائص الفهم ، وغـور العـلم ، وزهرة الحكم ، ورسـاخة الحلم .

فمن فهم علم غور العلم .

ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحلم .

ومن حلم لم يفرط فى أمره وعاش فى الناس حميدا .

والجهاد منها على أربع شعب :

على الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والصـدق فى المواطن ، وشـنآن الفاسـق .

فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين .
ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين .
ومن صدق فى المواطن قضى ما عليه .
ومن شنىء الفاسقين وغضب لله ، غضب الله له وأرضاه يوم القيامة .

والكفر منها على أربع شعب :
على التعمق ، والتنازع ، والزيغ ، والشقاق .
فمن تعمق لم ينب الى الحق .
ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق .
ومن زاغ ساءت عنده الحسنة ، وحسنت عنده السيئة ، وسكر سكر الضلالة .

ومن شاق وعرت عليه طرقه ، وأعضل عليه أمره ، وضاق عليه مخرجه .

والشك على أربع شعب :
على التمارى ، والهول ، والتردد ، والاستسلام .
فمن جعل المراء ديدنا لم يصبح ليله .
ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه .
ومن تردد فى الريب وطأته سنابك الشياطين .
ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك بينهما .
فهل عذب يروى كل ظامىء فى هجير الحيرة وموسوعة عالية للباحثين والزاهدين والعارفين ، وزجر أى زجر للمارقين الذين استولى الشيطان على قلبهم ..
ذاك نبع من بحر علوم الامام .. عليه السلام !

* * *

ولنتأمله كرم الله وجهه وهو يعظ ابنه الحسن رضى الله عنهما :
يقول له : يا بنى احفظ عنى أربعا وأربعا لا يضرك ما عملت معهن :

ان أغنى الغنى العقل •
وان الفقر الحمــق •
وأوحش الوحشــة العجب •
وأكرم الحسب حسن الخلق •
يا بنى : اياك ومصادقة الأحمق ، فانه يريد أن ينفعك فيضرك •
واياك ومصادقة البخيل فانه يقعد عنك أحوج ما تكون اليه •
واياك ومصادقة الفاجر فانه يبيعك بالتافه •
واياك ومصادقة الكذاب ، فانه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب •

ومن كرائم حكمته رضى الله عنه وكرم الله وجهه قوله :
لا مال أعود من العقل •

ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا عقــل كالتــدبير ، ولا كرم كاالتقوى ، ولا قرين كحســن الخلق ، ولا ميراث كالأدب ، ولا عائد كالتوفيــق ، ولا تجارة كالعمــل الصــالح ، ولا ربح كالثــواب ، ولا ورع كالوقوف عنــد الشــبهة ، ولا زهــد كالزهد فى الحرام ، ولا علم كالتفكر ، ولا عبــادة كأداء الفرائض ، ولا ايمان كالحيــاء والصــبر ، ولا حسب كالتواضــع ، ولا شرف كالعــلم ، ولا عــزة كالحلم ، ولا مظاهرة أوثق من المشــاورة اذا استولى الصــلاح على الزمان وأهله ، ثم أســاء رجل الظن برجــل لم تظهر منه حوبة فقــد ظلم ، واذا اســتولى الفســاد على الزمان وأهله فأحسن رجــل الظن برجل فقد غرر •

فلما انتهى كرم الله وجهه من كلامه الذى أخــذ لب الســامعين ســأله ســائل وهــو فى حيرة من أمره قائلا : كيف نجــدك يا أمير المؤمنين ؟!!

فقال له قولا بليغا ليشعره بما يحسن به فقال له :

كيف يكون حال من يفنى ببقائه ، ويسقم بصحته ، ويأتى من مأمنه !٠

قول حكيم جمع الله له الدين فى بؤرة قلبه فملك الخشوع جوانحه ، واستولت الرهبة على مجامعه ، وهذا من عجائب خصائصه الفريدة ومزاياه العديدة ، اذ كيف تملكه هذا الخوف ويكون سيد الشجعان ! ٠

وسئل عليه السلام عن قريش فأجاب بكلمات مقتضبات فصيحات تصيب المعنى ٠ فقال :

أما بنو مخزوم فريحانة قريش ، تحب حديث رجالهم والنكاح فى فى نسائهم ٠

وأما بنو شمس فأبعدها رأيا ، وأمنعها لما وراء ظهورها ٠
وأما نحن فأبذل لما فى أيدينا ، وأسمح عند الموت بنفوسنا وهم أكثر ، وأمكر وأنكر ، ونحن أفصح وأنصح وأصبح ٠

لقد جمع الامام كرم الله وجهه خصال قريش فى تلك الكلمات الموجزات ، وتلك من محاسن ألفاظه ومجامع حكمته وبلاغة مقصده عليه السلام ٠

ولنتأمله كرم الله وجهه وهو فى الدنيا خارجا عنها بروحه موجود فيها ببدنه ، مشغول عنها بفكره ، يسير على ترابها سير الأبدال ويتنفس هواءها تنفس الأولياء وينطق بمنطق الأنبياء ٠

« قال كميل بن زياد وهو من أصحابه المقربين : أخذ بيدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فأخرجنى الى الجبان « المقابر » فلما أصحر « الصحراء » ٠ تنفس الصعداء ثم قال :

يا كميل بن زياد : ان هـــذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها : فاخفظ عنى ما أقول :

الناس ثلاثة :

عالم ربانى « العارف بالله » •

ومتعلم على سبيل نجاة •

وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ، لم يســتضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا الى ركن وثيق •

يا كميل : العلم خير من المــال ، والعلم يحرسك وأنت تحرس المــال والمــال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الانفاق ومضيع المــال يزول مع زواله •

يا كميل بن زياد ، معرفة العلم دين يدان به ، به يكسب الانســـان الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعــد وفاته ، والعلم حاكم والمــال محكوم عليه •

يا كميل بن زياد : هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون مــا بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجــودة •• هــا •• هــا •• ان هاهنا لعلما جما !

وأشار بيده الشريفة كرم الله وجه الى صدره ــ ثم قال :

لو أصبت له حملة !! بلى أصيب لقنا « من يفهم بسرعة » غير مأمون عليه مستعملا آلة الدين للدنيا ، مستظهرا لنعم الله على عباده ويحجبه على أوليائه ، أو منقادا لحملة الحق ، لا بصيرة له فى أحنائه ، يتقدح الشــك فى قلبه لأول عارض من شبهه ، ألا •• لاذا ، ولا ذاك « لا يصلح لحمــل العلم واحد منهما » أو منهوما باللذة ، سلس القيادة للشهوة ، أو مغرما بالجمع والادخار ، ليس من رعاة الدين فى شىء ، أقرب شىء بهما الانعام السائبة ! كذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من

قائم لله بحجة ، اما ظاهرا مشهورا ، أو خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته . وكم ذا وأين ؟! — أولئك — والله الأقلون عددا ، والأعظمون عند لله قدرا ، يحفظ الله بهم حججه وبنيانه حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حثيث البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون — وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة الى دينه .

آه .. آه .. شوقا الى رؤيتهم !

انصرف يا كميل اذا شئت .

مهلا أبا الحسن مهلا .. يا مولاى كفاك ، فقد أبكيت الزمان من بعدك اليك شــوقا ..

اشتقت والشوق رسولك الى رسولك وصحبه الميامين ، فقد تركوك قائما عند مفترق الزمان ، تشير للناس نحو النبوة ، وتحذرهم مغبة الهوة ! هيهات .. هيهات يا شهيد الزمان والمكان ، فقد أصبح السائس مسوسا ، وصار العبيد أسيادا .. تلك آفة كل زمان ، فقــد تركت النــاس الحرة وتهافتوا على القبيحة .. هيهات لهــا من ســعود .

لقد حاربت بالسيف ، حتى تحطمت فى يدك كل السيوف دفاعا عن ابن عمك الحبيب والاسلام العظيم ، وحاربت بالكلمة والسيف معــا فى خلافتك حتى قدمت روحك قربانا للاسلام وأهله ..

ما أقسى الفراق أبا الحسن .. ما أقسى الفراق !

آه .. أبا الحسنين ، لقد أدميت القلوب حبا ، ومزقت الصدور جزعا ، حتى يأت المتفائل فينا يعرف مكنون الوجيعة ، ولا يجد لهــا عنده شفاء ، نعم الشفاء فى السلف ، وما خلف من التراث للحفظة القائمين بالعدل الناشدون لقرب الله . وما أقلهم ، وما أكثر البغاة ! منك نهل الناهلون ،

وحسدك الحاسدون ، ولقد صدقت فى قولك « نحن النمرقة الوسطى ، بهـا يلحق التالى ، واليها يرجع الغالى .. وها نحن يا امام العارفين نرجع كما يرجع البعير من الهجير الى صدر المـاء ، تتهافت شوقا اليك .. فذاك شوق مكنون ، وسر مكتوم ، وأمر محتوم !

* * *

ومن حكمته كرم الله وجهه أنه عرف الناس طرق الكياسة ودروب السياسة ، فهاهو يرفعهم الى منصات الاجتهاد والعبـادة ، حتى يكونوا متفانين فى حب الله والى رضاه طالبين ..

قال رجل من شيعته فى حضوره كرم الله وجهه « أستغفر الله » .

فقال له الامام كلمات يعرفه فيهـا الاسـتغفار ويرده الى الانابة ويرشده بصدق الى النهاية . فقال :

ثكلتك أمك ! أتدرى ما هو الاستغفار ؟

ان للاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان :

أولا : الندم على ما مضى .

والثانى : العزم على ترك العود اليه أبدا .

والثالث : أن تؤدى الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعـة .

والرابع : أن تعمد الى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها .

والخامس : أن تعمد الى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبـه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .

والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة ، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول : أستغفر الله !

تلك آهة من آهات الامام .. !

وزفرة من زفرات ايمانه العميق ، فمن ذا الذى يطيق لها صبرا ..

أستغفر الله يا سيدى يا امام ..

أستغفره كما تحب لنـــا وكما ترضى ..

وهل تحب لنـــا وللمسلمين الا الرضا فى الله والقرب من الله ..

ذاك استغفار العارفين .. وتلك آهة الابدال والصديقين .. جمعنا الله واياهم يوم الدين !!

كان رضى الله عنه وكرم الله وجهه يبذل ما فى وسعه من طاقة وصبر لنصح أصحابه والمحيطين به وعامة الناس ، فيرشـــدهم الى مواطن الضرر وسوء المنقلب . فى المـــال .. والأهل .. والدين .

فمن وصاياه الشريفة قوله :

تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها ، واستكثروا منها ، وتقربوا بها ، فانها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .

ألا تسمعون الى أهل النار حين سئلوا : ﴿ ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين ﴾ . سورة المدثر .

وانها لتحت الذنوب حت الورق ، وتطلقها اطلاق الربق ، وشـــبهها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله « بالنهر » يكون على باب الرجل فهو يغتسل منه فى اليوم والليل خمس مرات ، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن .

وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع ولا قرة عين من ولد ولا مال . يقول الله سبحانه ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ﴾ (سورة النور : ٣٧) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نصبا بالصلاة بعد التبشير له بالجنة لقول الله ســـبحانه : ﴿ وأمر أهلك بالصـــلاة واصطبر عليها ﴾ (سورة طه) فكان يأمر أهله ويصبر عليها نفسه ، ثم ان الزكاة جعلت مع الصلاة قربانا لأهل الاسلام ، فمن أعطاها طيب النفس بها تجعل له كفارة ومن النار حجازا ووقاية ، فلا يتبعنها أحد نفسه ، ولا يكثر عليها لهفه ،

فان من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها ، فهو جاهل بالسنة ، مغبون الأجر ، ضال العمل ، طويل الندم •

ثم اداء الأمانة ، فقد خاب من ليس من أبنائها ولا من أهلها ، انما عرضت على السموات المبنية والأرضين المدحوة ، والجبال ذات الطول المنصوبة ، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى منها ، ولو امتنع شيء بطول أو بعرض أو قوة أو عز لامتنعن ، ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل •

* * *

ويقول الامام كرم الله وجهه في مستعرض حكمته وأوامره وزواجره مبصرا الناس بأمور دينهم ، يقول فيمن يتصدى للحكم بين الأمة وهو جاهل بأمور الدين والدنيا ، فلا علم يحتج به ولا دراية من التاريخ يعتد بها يقول عليه السلام :

ان أبغض الخلائق الى الله رجلان !

رجل : وكله الله الى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل ، مشغوف بكلام بدعة « ما اخترعته الأهواء » ودعاء ضلالة فهو فتنة لمن افتتن به ، ضال عن هدى من كان قبله ، مضل لمن اهتدى به في حياته وبعد وفاته ، حمال خطايا غيره ، رهن بخطيئته « مأخوذ بها » •

ورجل ، قمش جهلا « جمع جهلا » موضع في حال الأمة « أى ليس لها أساس » عاد في أغباش الفتنة ، عم بما في عقد الهدنة « أى نسى أن الله يمهله » •

قد سماه أشباه الناس عالما وليس به بكر « أى ليس عنده شيء » فاستكثر من جمع ، ما قل منه خير مما كثر ، حتى اذا ارتوى من آجن « ماء يتغير طعمه » واكتنز من غير طائل ، جلس بين الناس قاضيا ضامنا لتخليص ما التبس على غيره ، فان نزلت به احدى المبهمات هب لا حشوا رثا من رأيه ، ثم قطع به ، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت ، لا يدرى أصاب أم أخطأ ، فان أصاب خاف أن يكون قد

أخطـأ ، وان أخطـأ رجـا أن يكون قـد أصـاب ، جاهل خبـاط جهالات ، عاش ركاب عشوات ، لم يعض على العلم بضرس قاطع ، يذرى الروايات اذراء الريح لهشيم ، لا ملىء والله باصدار ما ورد عليه ، ولا هو أهل لـما فوض اليه ، لا يحسب العلم بشىء مما أنكره ، ولا يدرى أن من وراء ما ذهب وبلغ مذهبا لغيره ، وان أظلم عليه أمر اكتتم به لـما يعلم من جهل لله ، تصرخ من جور قضائه الدماء ، وتعج منه المواريث •

الى الله أشكو من معشر يعيشون جهالا ، ويموتون ضلالا ، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب اذ تلى حق تلاوته ، ولا سـلعة أنفق بيعـا ولا أغلى ثمنا من الكتاب اذ صرف عن مواضعه ، ولا عنـدهم أنكر من المعروف ، ولا أعرف من المنكر !

* * *

كلمات من نور •• تخرج من مشكاة النبوة ، ناصعة كالجوهر بيضاء كالشمس تعمى أبصار الخفافيش ومصاصى الدماء ، ومحبى الظلام • تزيح عبر العصور ما ران على الصدور من هم وغم وظلم ، وقهر وأفانين ملتوية من سم الثعابين الذين يسـيئون الى الناس بجهلهم ليصدروهم عن المورد المورود ، ولا يخافون الله يوم المشهد المشهود •

فهاهو كرم الله وجهه ورضى الله عنه يبصر العباد بمقالة قصيرة يعالج فيها أضرار الأمة وما نزح اليها من جهل الجاهلين وما استباح فيها من دلو المتنطعين على الدين باسم العلم البائر والحكمة العقيمة والفلسفة السقيمة ، يقول كرم الله وجهه فى معرض حكمته البالغة التى تسرى مع الزمان سريان النور فى الروح والابدان •

« لا يترك النـاس شـيئا من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم الا فتح الله عليهم ما هو أضر منه »

أجل •• فما ان تركت الأمة هدى القرآن وهدى النبى صلوات الله وسلامه عليه حتى ضل سعيها وضعف كيدها واستهانت عند أعدائها • فكل

ما تركوه من هدى القرآن وسنة النبى عليه السلام تحت أى أسـماء من المسـميات التى جلبوها وما أكثرها اليـوم انما فتح عليهم أبواب الضرر ليزدادوا ضرارا ، ولذلك ينصح الامام عليه السلام ، وهو الناصح الشفيق ، العالم المجرب ، والعارف الذى لا غنى للزمان عنه ، ينصحهم قبل أن يأتيه أجله يعيد عليهم ما سمعه الرعيل الأول للدعوة من الهـادى المصطفى الحبيب جامعا الامام كرم الله وجهه جوامع كلم النبى صلى الله عليه وسلم فى حكم وشرائع للعيان فيقول لهم :

« ان الله افترض عليكم الفرائض فلا تضيعوها ، وحد لكم حدودا فلا تعتدوها ، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت لكم عن أشـياء ولم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها » .

حكمة بالغة من حكيم بليغ .! وارشاد قويم الى الصراط المستقيم ، ونهى صريح للذين يدعون العلم وهو منهم براء فينبشـون فى أعمـاقه ليتناولوا ما لا يفقهون على هواهم فيضلون ويضلون .

وها هو الامام يكشف تلك الحكمة فى كلمات فيقول :

لا يقيم أمر الله سبحانه الا من لا يصانع ، ولا يضارع ، ولايتبـع المطامع !

أى لا يتقيم الحـق مع المنافق ولا المشابه ، ولا الذى يحكم بهواه لينـال الطمع !

* * *

ولنتأمله كرم الله وجهه وهو يوصى الناس ما كان يوصيهم به ابن عمه وحبيبه صلى الله عليه وسلم محددا لهم فى كل مرة هـدفه ومبتغاه حتى يحفظوا عنه ما يريد ويفهموا عنه ما يقصد :

يقول كرم الله وجهه :

أوصيكم بخمس لو ضربتم اليها آباط الابل لكانت لذلك أهـلا : لا يرجون أحدا منكم الا ربه .

ولا يخافن الا ذنبه .

ولا يستحسن أحد اذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه ، وعليكم بالصبر فان الصبر من الايمان كالرأس من الجسد ، ولا خير فى جسد لا رأس معه ، ولا فى ايمان لا صبر معه !

* * *

كلمات تنبــأ عن كثير .
ووصايا تنفع المؤمن فى الوقت العسير .

أيضا تنبيء عن نبع صاف أصيل ، ومعدن من الرجال ليس له نظير ولا مثيل .. لأنها كلمات من نور تسرى فى العقول المظلمة بالجهل فتفتح أمامها أبواب الخير والفلاح . وليس للامام منها قصد غير التنوير واليقظة والتواضع . فهاهم بعض أصحابه يطرونه ببعض الكلام فقال الامام كرم الله وجهــه :

اللهم انك أعلم بى من نفسى .
وأنا أعلم بنفسى منهم .
اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون .
واغفر لى ما لا يعلمون !

* * *

وقال لرجل أفرط فى الثناء عليه وكان له متهما :
أنا دون ما تقول وفوق ما فى نفسك !

* * *

تواضع فى عظمة هاشمية ... وثقة ملزمة هى ثقة العــالم العــابد والســيد الشجاع يأبى أن يضام أو أن يستكين .

ويقول كرم الله وجهه مبصرا أصحابه بشيء لم يتداركوه :

« نوم على يقين خير من صلاة على شك ! » .

وقال كرم الله وجهه وهو عائد من صفين لأصحابه عند مرورهم على المقابر قائلا للأموات :

يا أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة ، والقبور المظلمة . يا أهل التربة ، يا أهل الغربة ، يا أهل الوحدة ، يا أهل الوحشة ، أنتم لنا فرط سابق ، ونحن لكم تبع لاحق ، أما الدور فقد سكنت ، وأما الأزواج فقد نكحت ، وأما الأموال فقد قسمت . هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟

ثم التفت الى أصحابه فقال :
أما لو أذن لهم فى الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى !
وكأنما كان الامام يعيش حياتين !
ويخاف من اثنين !

كان يعيش عالم المشاهدة بجسده ، ويغيب بباطنه فى عالم الغيب ، فيدفع بما يرى فى الغيب أباطيل المشاهدة فى ضمير الناس ، فارتهنت حياته بخوفين ، خوف من العزيز الجليل ، وخوف من الذنب الثقيل ، فطرد عن نفسه كل ربىء وتعلق بروحه بالله والخوف من الله والعمل لله ، فكان عبدا ربانيا يسير على قدميه يبصر الناس من الهلكة ، فعاش غريبا بينهم وهو الأمير وهو الامام .

الا أن الأمور الجسام والمصائب الجلل قد أحاطت به فى امتحان رهيب يزلزل أقدام الصديقين ويطيش بصواب المحسنين ، فاجتاز المحنة بصبر تتخلع من هوله الجبال وييأس من قسوتها الابدال ، فعبر المضيق بزادين وتنفس الصعداء مرتين !

حصن نفسه بالعلم والفقه بأبصر مواضع الشبهة ، ودرس بأقدامه مواطن التهمة ، فخرج من المضيق نظيفا الى سعة الطريق .

وحمل السيف يذود به عن الحق فسعى الحق فى ركابه فدار معه حتى النهاية ولم يتركه الا على عتبات الآخرة .

تنفس الصعداء وهو يحمل على كاهله شهادتين تجيزان له الدخول من أوسع أبواب النعيم ، شهادة الشهيد أبو الشهداء ، وشهادة الصديق خير الامناء . فنعم حياة البرزخ ونعم يوم اللقاء .. !!

* * *

وسأله رجل شامي قبل الخروج الى الشام :
يا أمير المؤمنين ، أكان مسيرنا الى الشام بقضاء من الله وقدر ؟
فقال له الامام علي كرم الله وجهه بعد كلام طويل هذا مختاره :

« ويحك ! لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حاتما ، ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد « أي علم الله السابق بحصول الأشياء » .

ان الله سبحانه أمر عباده تخييرا ، ونهاهم تحذيرا ، وكلف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ولم يعص مغلوبا ولم يطع مكرها ، ولم يرسل الانبياء لعبا ، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثا ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ﴾ سورة ص : ٢٧

* * *

ومن محاسن ألفاظه وحكمته كرم الله وجهه أن سأله رجل يعجب به وزاد في الثناء عليه فقال له عليه السلام :
« أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك ! » .

* * *

ومن حكمته النافعة للناس جميعا قوله كرم الله وجهه :
من كفارات الذنوب العظام اغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب !
ولعمري لو سار على هذا النهج الناس لما بقي فقير ، وما بقي مذنب !

* * *

ولنتأمل زجره لأصحابه الذين خرجوا عليه وهو امامهم وأميرهم فلم يطعوه ولم ينفذوا له أمرا بل حاربوه وكانوا أشد عليه من أعدائه يقول لهم بفصيح حكمته وبلاغة منطقه قولا يهد رواسخ الجبال فيقول :

« لا أبا لغيركم .. !

وتلك من فصائح اللغة لأنه وجه اللوم الى غيرهم لعلهم يهتدون ثم يستطرد كرم الله وجهه :

ما تنتظرون بنصركم ربكم ، والجهاد على حقكم !
الموت أو الذل لكم !

فوالله لئن جـاء يومى ـ وليأتينى ـ ليفرقن بينى وبينكم وأنا لصحبتكم قال « كاره » وبكم غير كفير .

لله أنتم . ! أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم .

أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجناة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء ، وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الاسلام .

انه لا يخرج من أمرى رضا فترضونه ولا سخط فتجتمعون عليه ، وان أحب ما أنا لاق الى الموت !

لقد درستكم الكتاب ، وفاتحتكم الحجاج « أى قاضيتكم » وعرفتكم مـا أنكرتم وسوغتكم ما مججتم ، لو كان الاعمى يلحظ ، أو النـائم يستيقظ !!

* * *

ومن محاسن ألفاظه وكريم قوله وحكيم لفظه كرم الله وجهه قوله ينصح أصحابه وكثيرا ما كان ينصحهم لله وفى الله :

لقد انجابت السرائر لأهل البصـائر ! ووضحت محجـة الحـق وأسفرت الساعة عن وجهها ، وظهرت العلامة لمتوسمها .

كلمات تفصح عن مكنون صدر الامام ، فقد انكشف أمام سريرته المحجوب عن عينيه ، رأى بنور ايمانه ما لا يراه الآخرون حتى ظهرت أمامه علامات الآخرة فكأنه يقول لهم كما قال الصـادق الصدوق صلوات الله وسلامه عليه « بعثت والساعة كهاتين » وأشار بسبابتيه .

ثم يستطرد الامام الفصيح الكلام زاجرا أصحابه بقوله :

« مالى أراكم أشباحا بلا أرواح ؟ وأرواحا بلا أشباح ، ونساكا بلا صلاح، وتجارا بلا أرباح ، وايقاظا نوما ، وشهودا غيبا وناظرة عمياء ، وسامعة صماء ، وناطقة بكماء ؟ » .

***

تلك ملكات لغوية فى مقامات علوية لا يرقى اليها الرامى الناشد لمحاسن ألفاظ العرب وتجانس لغة السلف من توافق الجناسات وانسجام السجعات وبدائع الفنون اللفظية .

فكلام الامام كلام عريق لا يصبو اليه الا كل عريق فى اللغة ، عريق فى الفقه والقضاء ، حكيم ينشد الحكمة البالغة من عين صافية الأديم .

ومع هذا العلم الغزير وهذا الايمان العميق كان رضى الله عنه لا يشغله عن العبادة شاغل ولا عن ذكر الموت حادث ، فقد تبرأ من الدنيا، وطلقها ثلاثا لا رجعة فيها وحذر منها الناس لانها نضرة غرارة مكارة تأخذ بتلابيب النفوس وتشحذ الهمم نحو الانحراف والفساد ، يقول كرم الله وجهه :

« ان الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان ، وسبيلان مختلفان فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها ، وهما بمنزلة المشرق والمغرب ، والماشى بينهما كلما قرب من واحد بعد من الآخر ، وهما بعد ضرتان !

***

هنالك كان كرم الله وجهه لا ينام الليل من كثرة التهجد والسجود بل كان ليله بكاء ونهاره جهاد وعظة وجهاد النفس عند الناس ليقبلوا على

الله بقلوب واجفة وأبصار راجفة وأفئدة مشفقة فهاهو نوف البكالى صاحب أمير المؤمنين يقول :

رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشة فنظر فى النجوم فقال لى :

يا نوف ، أراقد أنت أم رامق « منتبه العين » .

فقلت : بل رامق . قال :

يا نوف ، طوبى للزاهدين فى الدنيا ، الراغبين فى الآخرة !

أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا وترابها فراشا ، وماءها طيبا ، والقرآن شعارا والدعاء وثارا ، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح.

يا نوف ، ان داود عليه السلام قام فى مثل هذه الساعة من الليل فقال: انها ساعة لا يدعو فيها عبد الا استجيب له ، الا أن يكون عشارا ، « من يتولى أخذ عشار الأموال » وهو المكاس . أو عريفا أو شرطيا ، أو صاحب عرطبة « الطنبور » أو صاحب كوبة . وهى الطبل .

***

كان لا يهجع من الليل الا قليلا ، زهد الدنيا وتبرأ منها وأقبل على الآخرة بكل كيانه وايمانه ليلحق بأصحابه ويجاور حبيبه وابن عمه صلوات الله وسلامه عليه بعمله وعلمه وفقهه وحكمته .

فهذا ضرار الصادق الضبابى صاحبه الذى كان لا يفارقه دخل عند معاوية بن أبى سفيان فسأله معاوية عن على كرم الله وجهه قائلا له : يا ضرار .. صف لى عليا ؟

فقال ضرار وقد أخذه النحيب حين ذكره معاوية بصاحبه : أشهد

لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو قائم فى محرابه ، قابض على لحيته يتململ تململ السليم « الملدوغ » ويبكى بكاء الحزين ويقول :

يا دنيا . اليك عنى ، الى تعرضت ! أم الى تشوقت ! لا حان حينك، هيهات ، غرى غيرى ، لا حاجة لى فيك ، قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها . فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير . آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، وطول الطريق !!

* * *

شوق ما بعده شـوق الى الاحباب ، فعمل للقاء تاركا نسبه وشرفه خلف ظهره وطلق الدنيا وعمل للمعاد بخير زاد وهو التقوى .

ايمان ارتقى بصاحبه الى الشفافية المطلقة والحســاسية المرهفة ، فاستكثر طول البقاء ، واستعبر بقلة الزاد . وهو الساجد المتصدق فى سـجوده والشجاع المتصدق بدمائه ، والعالم الوارث علم النبوة .

فها هو أمير المؤمنين وحكيم الأمة وفيلسوف الاسلام يصف الاسلام وصفا يدحض به حجج الأباطيل والمتغربين الذين يدعون أن الاســلام عبـادة ولا يزيد عليها ها هو الامام كرم الله وجهــه يصف الاســلام وصفا دقيقــا فيرتقى به الى مرتقى لا يدانيه فيها دين ولا يتطاول عليــه مذهب من مذاهب المتشــدقين بالحضــارة والمستشرقين المناوئين للاسلام يقول كرم الله وجهه :

« لأنسبن الاســلام نسبة لم ينسبها أحــد قبلى : الاســلام هو تسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصــديق هــو الاقرار ، والاقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل .

* * *

ولذلك تجده كرم الله وجهه يتعجب كثيرا ويتأمل كثيرا فيمن حوله فحينا يزجر وحينا يعظ وطورا يقاتل . يقول كرم الله وجهه :

عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب ، ويفوته الغنى الذى اياه طلب ، يتعيش فى الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب فى الآخرة حساب الأغنياء !!

وعجبت للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة ويكون غدا جيفة !

وعجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله !

وعجبت لمن نسى الموت وهو يرى الموتى !

وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى !!

وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء !

ولا أعجب من هذا فيما نرى كل يوم ، فقد ضل الكثير من الناس ضلالا بعيدا ، فضن الغنى بفضل ماله وبجواره الفقير يتضور جوعا ، واستباح العالم فتواه للهوى والقصد دون مراعاة حرمة المسلمين وضلالهم .

فعجبك يا سيدى يا أمير المؤمنين امتد عبر كل زمان ولا سبيل لتغييره ما بقى الثواب والعقاب . فلا حاجة لله فيمن ليس لله فى ماله ونفسه نصيب !

فمن وسع الله عليه فى ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا ، ومن ضيق عليه فى ذات يده فلم ير ذلك اختبارا فقد ضيع مأمولا !

ومن هنا نجده كرم الله وجهه يوصى عماله وأمراءه على البلاد بوصايا لو أخذ بها ولاة الأمور فى كل عصر وفى كل حين لساد الاسلام الدنيا وعاد سيرته الأولى ولأصبحت الأمة خير أمة أخرجت للناس كما وصفها المولى عز وجل وتلك هى مشكلة المشاكل لحكام كل العصور ، فتناطحهم على البقاء فى الحكم والعمل على تثبيت دعائم ملكهم بالطرق الشرعية وغير الشرعية وما أكثرها فى كل أوان هى آفة تنخر فى عظام المسلمين .

فهاهو الامام كرم الله وجهه يخاطب ابن عمه قثم بن العباس عامله على مكة المكرمة فيقول له :

« أما بعد : فأتم للناس الحج ، وذكرهم بأيام الله ، واجلس لهم العصرين ، فأفت المستفتى ، وعلم الجاهل ، وذاكر العالم ، ولا يكن لك الى الناس سفير الا لسانك ، ولا حاجب الا وجهك .

ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها ، فانها اذا ذيدت عن أبوابك فى أول وردها ، لم تحمد فيما بعد على قضائها .

وانظر الى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه الى من قبلك من ذوى العيال والمجاعة ، مصيبا به مواضع المناقر والخلات ، وما فضل عن ذلك فاحمله الينا لنقسمه فيمن قبلنا ، ومر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجرا فان الله سبحانه يقول : ﴿ سواء العاكف فيها والباد ﴾ فالعاكف المقيم به والبادى الذى يحج اليه من غير أهله ، وفقنا الله واياكم لمحابه ، والسلام » .

ومن كتبه أيضا كرم الله وجهه كتابه الى الحارث الهمدانى عامله على اليمن وكان فقيها مصاحبا للامام على وابن مسعود رضى الله عنهما يقول له الامام كرم الله وجهه :

« تمسك بحبل القرآن واستنصحه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وصـــدق بما سلف من الحق ، واعتبر بما مضى من الدنيا لمـــا بقى منها ، فان بعضها يشبه بعضـــا ، آخرها لاحق بأولها ، وكلها حائل مفارق .

وعظم اسم الله أن تذكره الا على حق ، وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت ولا تتمن الموت الا بشرط وثيق .

واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفســـه ويكرهه لعامة المسلمين ، واحذر كل عمل يعمل به فى السر ويستحى منه فى العلانية .

واحذر كل عمل اذا ســـئل عنه صاحبه أنكره أو اعتذر منـــه ، ولا تجعل عرضـــك غرضا لنبال القوم ، ولا تحدث نفسك والناس بكل ما سمعت به ، فكفى بذلك كذبا ، ولا ترد على الناس كل ما حدثوك به فكفى بذلك جهلا .

واكظم الغيظ وتجاوز عنـــد المقـــدرة ، واحلم عنـــد الغضب ، واصفح مع الدولة (أى مع السلطة) تكن لك العاقبة ، واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليـــك ، ولا تضيعن نعمة من نعم الله عنـــدك ، ولير عليك أثر ما أنعم الله به عليك .

واعلم أن أفضل المؤمنين آفضلهم تقدمة من نفســـه وأهله وماله فانك ما تقدم من خير يبق لك زخره ، وما تؤخره يكن لك شره ولغيرك نعمـــه .

واحذر صحابة من يقيل رأيه (يضعف) وينكر عمله فان الصاحب يعتبر بصاحبه واسكن الأمصار العظام فانها جماع المسلمين ، واحـــذر منازل الغفلة والجفاء وقلة الاعوان على طاعة الله ، واقصر رأيك على ما يعنيـــك .

واياك ومقاعد الأسواق فانها محاضر الشيطان ومعاريض الفتن .

وأكثر أن تنظر الى من فضلت عليه فان ذلك من أبواب الشكر .

ولا تسافر فى يوم جمعة حتى تشهد الصلاة الا فاصلا فى سبيل الله أو فى أمر تعذ به . وأطع الله فى جميع أمورك فان طاعة الله فاضلة على ما سواها ، وخادع نفسك فى العبادة وارفق بها ولا تقهرها وخذ عفوها ونشاطها الا ما كان مكتوبا عليك من الفريضة فانه لابد من قضائها وتعاهدها عند محلها .

واياك أن ينزل بك الموت وأنت آبق « متحول الى الدنيا » من ربك فى طلب الدنيا ، واياك ومصاحبة الفساق فان الشر بالشر ملحق .

ووقر الله وأحبب أحباءه ، واحذر الغضب ، فانه جند عظيم من جنود ابليس . والسلام » .

ويقول مخاطبا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قائلا فى ايجاز بليغ : « أما بعد : فانك لست بسابق أجلك ، ولا مرزوق ما ليس لك ، **واعلم بأن الدهر يومان : يوم لك ، ويوم عليك ، وأن الدنيا دار دول ،** فما كان منها لك أتاك على ضعفك ، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك » .

دستور عظيم مستمد روحه ومعانيه من القرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، فكل نصيحة وموعظة قالها الامام كرم الله وجهه انما لها جذورها وأصولها فى الشرع ومعناها الأصيل فى الأصول ، فلو أن الله سبحانه وتعالى من على ولاة الأمور فى الأمة بهذا الهدى المحمدى والفقه العلوى لسعى المسلمون زمرا نحو الجنة والخلد المقيم . فسبحان من يغير ولا يتغير !

فكل ضرب من ضروب الحكمة العلوية لها بلاغة فى النفوس والأفئدة ، لهى سوط نذير وطاقة ريحان وبشير .

ففنون الفصاحة وجزالة الحكمة عند الامام على كرم الله وجهه قد ارتقت الى بغيتها فامتدت اليها الأعناق بالأشواق وابتعدت لقبولها الأعراق . فهى حكمة شريفة نابعة من صدر شريف ، عمل منذ مهده الى لحده فى الجهاد لله رب العالمين فى شتى الدروب .

فصل نفسه الكريمة عن الموكب الالهى بروحه فى هداية الناس لعلهم يرجعون فسما بصحابته عن غاشيات الدنيا وارتقى بهم الى الملكوت الأعلى ليشهدوا النور الأسنى .

تلك حكمة بالغة ومقدرة فريدة فى الدعوة الى الله رب العالمين لا يقدر عليها الا حكيم أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب .

وانى والله لفى عجب عجاب لأمير الحرب ، وأمير المؤمنين ، وسيد الفقهاء ، وعالم الأمة ، كيف وفق فى الامارة مع تلك الفتنة المظلمة ومع أولئك المتناسين لعهدهم ، كيف وفق كل هذا التوفيق فى احراز النصر على المعتدين الظالمين وأعد لهم العدة وبطش بهم كل البطش ثم بعد هذا كله هو خير العابدين والزاهدين والمتشوقين الى لقاء الله . فقد دخل عليه جماعة من أصحابه فى بيته فوجدوه يبكى كرم الله وجهه فسألوه عن ذلك فقال : يا أيها الناس : طوبى لمن شغله عيبه عن الناس ، وطوبى لمن لزم بيته ، وأكل قوته ، واشتغل بطاعة ربه ، وبكى على خطيئته ، فكان من نفسه فى شغل والناس منه فى راحة ! » .

لله درك أبا الحسن !

قدت الأمة بجهادك المجتبى فى تقدم الزمان فأبوا الا السقوط فى بحر الدم والفتنة فأسقطوك فى الدم مسربلا وهرولوا نحو الدنيا ينهلون

منها بحذافيرها تاركينك بعقائل الشـــهادتين الشريفتين ، شهادة الشهيد الذى أدى ما عليـــه وشهادة عليهم بالاثم وبين أيديهم مواعظ الدين •

لله درك يا أمير المؤمنين •

فمن ســـار على هديك نجا فانه الهدى المحمدى ، ومن بعــد عن حكمتك سقط فى أتون الاثم الأثيم •

صورة مجملة

من الختل أن نجمل تاريخ العظماء •

ومن العســير أن نقف على شاطىء من شـــطآن تلك العظمة •

ولكننا نقصــد بقولنا «مجملة» أن تتجمل ما وســعنا ذلك أمام العظمة ليتسنى لنـــا أن ننظر اليها ولو من قريب • ولكن ؟

من ذا الذى يستطيع أن يبصر ؟

أيبصر العظمة وهى فى ثياب النور ؟!

يبصر ماذا ؟!!

أيمكن لانســـان أن يتمعن فيمن ارتجفت أمامه فرائص الشجعان • أو يشـــاهد بعينيه ذلك الذى رأى الملائكة على الأرض رؤيا العيان ؟!!

ذاك أقرب الى الخيـــال •

فذاك هو الامام ••

ذاك هو الامام الذى احتار العلماء فى بحور علمـــه ووقف جهابذة الفقهاء أمام فقهه وفقه تلميذ امام عالم مكين •

لقد فطم عن العلم بعد اذ رضع من لبان النبوة حتى ارتوى ، فملأ مخزون قلبه الذى انطوى على سر الوجود ودرجات الخلود ، فعمل المخلود فى الأرض ، فخلد خلدين !

خلد فى نفوس الناس فسار علمه وفقهه مشار بحث العلماء الى يوم يبعثون .

وخلد بشجاعته وسيفه حين تحطمت شجاعة الشجعان وتحطمت معها السيوف وهو باق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذود عنه بالروح ما بقى فى جسده روح ضد الكافرين .

فأى مصير ينتظر هذا الامام العظيم ؟!

أى مصير ينتظر من الأجيال اللاحقة حتى نهاية الزمان لهذا البطل الانسان غير التكريم والاجلال .

فعدوه معاوية بن أبى سفيان بكى حين مات الامام ووصفه له أحد أصحابه كأنه لم يعرفه ولم يره حتى فارق الحياة .

وأى حب يا سيدى يا ابن عم رسول الله يا أبا الحسنين جمعه لك آهاتهم ووجدانهم وحياتهم ما رموا فى الأبد وحتى أبد الآبدين .

وأى حب يا سيدى يا ابن عم رسول الله يا أبا الحسنين جمعه لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العالمين .

لا شىء .. فقد قضى على لسان المبعوث رحمة للعالمين أن لا يحبك الا الطيب والمؤمن وذو الأصل الكريم .

أبعد ذلك تكريم ! ..

فليفق الغافلون فلا ينظر اليك يوم القيامة الا وأنت بجوار سيد العالمين نورا يستضاء به الخلق أجمعين .. ذاك منتهى الخلد .

وهذا درب العاشقين !!

تم الكتاب بعون الله

* * *

المراجـــع

١ ــ القرآن الكريم •

٢ ــ نهج البلاغة ــ للشريف الرضى شرح الامام محمد عبده •

٣ ــ عبقرية على ــ الأستاذ / محمود عباس العقاد •

٤ ــ أعلام الموقعين عن رب العالمين ــ ابن القيم •

٥ ــ البداية والنهاية ــ لابن كثير •

٦ ــ الروض الأنف ــ للسهيلى •

٧ ــ عيون الأخبـــار ــ لابن قتيبة •

٨ ــ العقد الفريد ــ لابن عبد ربه •

٩ ــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ــ ابن الأثير •

١٠ ــ مقاتل الطالبيين ــ لأبى الفرج •

١١ ــ تاريخ الامام زيد ــ للشيخ محمد أبو زهرة •

١٢ ــ قضاء أمير المؤمنين ــ للشيخ التسترى •

١٣ ــ السيرة النبوية ــ لابن اسحاق •

١٤ ــ سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون •

* * *

فهرس

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ٧٠٠٦/٩٠

دار التوفيق النموذجية للطباعة
ت: ٩٢٥٢٠٤
الأزهر، ٣ ميدان أبو صلى - بجوار جامع الرعاة